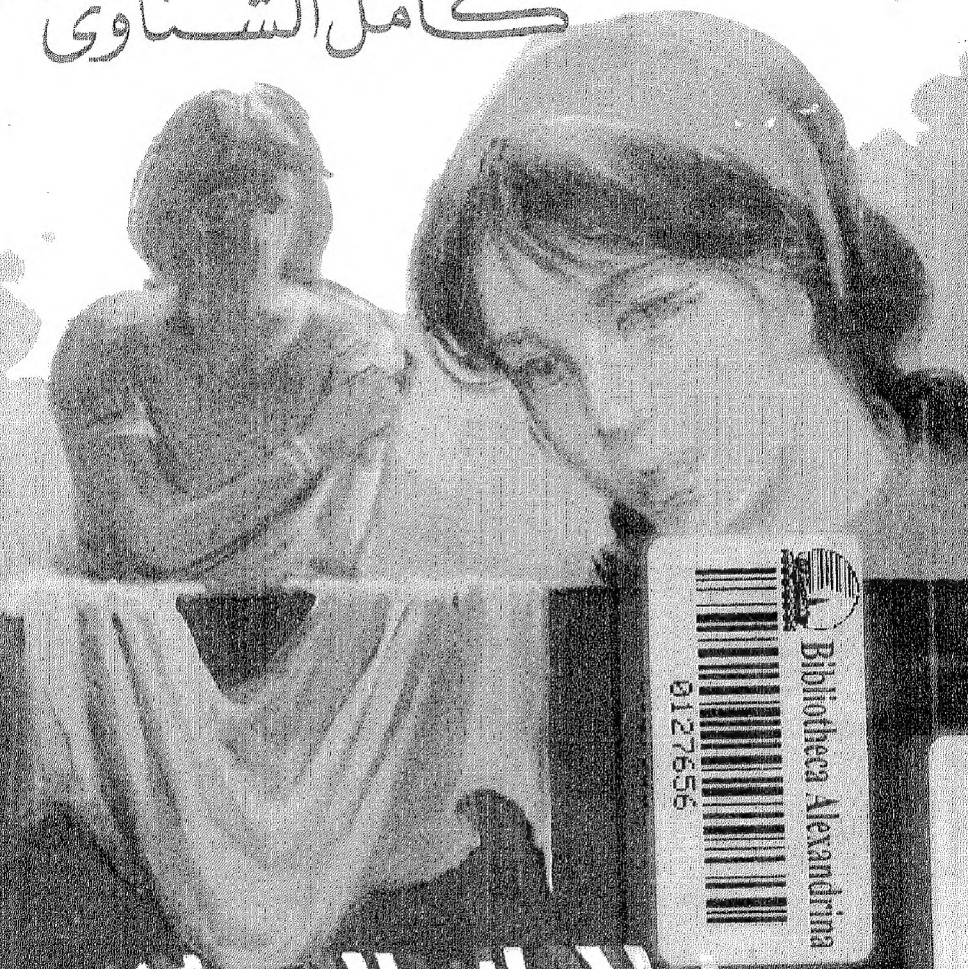


كامل الشناوى



بين الحياة والموت



دار المعارف

بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ

بقلم
كامل الشناوى

الطبعة الثانية



الناشر : دار المعارف - ١١١٩٠ كورنيش النيل - القاهرة ٢٠٠٤ ع.

خذوها.. واطبعوها

هل عندي ما أقوله؟ ربما! ولكن هل هذا الذي أقوله يستحق أن أجمعه في كتاب؟ ظللت طيلة اليوم أراجع أوراقاً لم أنشرها بعد. فوجدت قصصاً قصيرة، وقصة طويلة بدأتها في عام ١٩٥٠، ولم أنته من كتابتها حتى الآن، عثرت على بضع قصائد تحتاج إلى إعادة النظر فيها وعدة بحوث عن حياة المتنبي، وأبي حيان التوحيدي، وسخرية أبي العلاء.

وأخذت أقلب في المجموعات التي تضم ما نشرته لي الصحف خلال خمسة وعشرين عاماً، وإذا هي تكفي من حيث كثرتها لإصدار عدة كتب تتناول عشرات الموضوعات. ومع ذلك فأنا أتهيب تأليف كتاب يحمل اسمي. وإني لأعرف ناساً يبهجهم أن تصدر لهم دور النشر كل يوم كتاباً، أو قصة أو ديوان شعر. فما سر تهبي مما يبهج هؤلاء الناس؟

ربما لأنني لا أثق بنفسي. وليس هذا تواضعاً، ولكنه شعور صادق بحقيقتي، فأنا أؤمن بأن الحياة غمو وحركة وفي

كل يوم أئتم بالقراءة، وأتحرك بدراسى المباشرة للناس، فحياتى متطورة، وهذا التطور يغير نظرى إلى الأشياء، فيثير شكوكًا فى آرائى، أو يدعم هذه الآراء.

وكم من فكرة خطرت لى، فلم أجروا على إذاعتها، واكتفيت بتسجيلها فى دفتر أدفنه بين كتبى المتناثرة فى جميع غرف البيت حتى لقد صار يبتى أشبه بمقابر الصدقات! وأحيانًا تمتد يدى إلى دفتر من هذه الدفاتر فأقرأ فيه سطورًا تعجبى، وأقرأ سطورًا أخرى لا تعجبى، ثم أتركها كما هى، فمن يدرى؟ لعلها تعجب غيرى فيذيعها بعدما أصبح فى ذمة التاريخ، وهى ذمة تتسع للناخبين وللتافهين على حد سواء!

وقد يسأل واحد من القراء: لماذا إذن تسمح بشر ما تكتبه من شعر ومقالات؟ وجوابى عن ذلك أنى لا أنشر شيئًا، ولكنى أدفن بعض ما أكتبه فى دفاترى الخاصة، وأدفن بعضه الآخر فى مطابع الصحف التى أعمل بها، ومن حسن حظى أن ما دفنته فى مطابع الصحف أصابه البعث، ولقى صداه عند قارئ، أو أكثر، فأصبحت كاتبًا فى رأى بعض القراء!

أنا لا أجلس مع الناس لأقتل وقتي، وإنما أجلس معهم،
لأخلق النبض في حياتي، والطريقة التي أدير بها الحديث في
مجالسنا، تشحذ خواطري، وتساعد أفكاري على تدريب
عضلاتها!

وفي كثير من الأحيان أترك بيتي أو مكتبي بعد عمل دائم
يستمر حتى منتصف الليل، وأذهب إلى حيث أجتمع بناس
أستريح لهم، أو أضيق بهم. فالراحة والضيق يثيران شوقي إلى
الكتابة، وأنا لا أعرف كيف أكتب دون أن أحس لدعة
الشوق وحرارته.

وقد انتابني في هذا الصيف طموح إلى أن أطبع عدة
كتب، وديوان شعر، ولم أكد أعود إلى القاهرة حتى عدلت
عن تفكيري. قد نسيت في الإسكندرية طموحي مع رمال
الشاطئ والمياه.

أنت يا صديق أحمد تصغرون بعشرين عاماً على الأقل،
وستعيش بعدى، وعندما تحترق سيجارة حياق ويرسف القدر
آخر نفس فيها، فأهرع إلى بيتي، وأخذ ما تجده من أوراق
وانشره على الناس، وما أقوله لك ليس مداعبة، ولكن وصية
أسجلها هنا علناً، وعلى رؤوس الأشهاد!

وقد تأثرت في مستهل حياتي بكلمة لناقده عربى قديم،
وقد ذكر أن الإنسان يظل بعقله إلى أن يؤلف كتاباً، أو يجمع
ديوان شعراً

ويظهر أننى حرصت أكثر مما ينبغى، على أن أظل بعقلى !
وشئ آخر تأثرت به، فقد قرأت منذ ثلاثين عاماً، أن
الشاعر الفرنسى بول فاليرى كان لا ينشر قصائده، وإنما
ينظمها، ويتركها ملقاة على مكتبه، ثم يعود إليها فينقحها
وهذهها، وكثيراً ما كانوا يترددون عليه - فإذا وجدوا قصيدة
كاملة سرقوها ونشروها باسمه.

وكان إذا هاجمه النقاد لا يرد على هجومهم لأنه لم ينشر
شيئاً !

وقد سوغ طريقتيه فى الإصرار على ألا ينشر آثاره، بأن
جميع الشعراء والفنانين القدامى كانوا يصممون أعمالهم فى فترة
قصيرة، ويخصصون أكبر فترة لوضع اللمسات الأخيرة لهذه
الأعمال، وقد تستغرق هذه الفترة عمراً طويلاً. وبعد ذلك
يلقون بما يعملون إلى النار، أو إلى الناس.. فالنار والناس
كلاهما جحيم يحرق عمل الفنان !

وأبادر فأسجل أننى لا أنشر آثارى فى كتاب خوفًا عليها
من الاحتراق، فليس فيها ما أخشى أن تحرقه النار، أو يحرقه
الناس !

وشىء ثالث أغرائى بالتأنى فى إصدار الكتب، فقد تأثرت
بأستاذ عظيم هو أحمد لطفى السيد، وطالعت آثاره التى ترجمها
عن أرسطو، واستمعت إليه محدثًا فى كل فن، وظفرت منه
بأحاديث نشرتها فى الصحف، وليس للطفى السيد كتاب واحد
من تأليفه إلا بضع مقالات جمعها تلميذه الأستاذ إسماعيل
مظهر.

إن الكتاب مسئولية لا يقوى على تحملها إلا قادر عليها،
أو جاهل بها، وأنا حتى هذه اللحظة لا أقوى عليها،
ولا أجهلها !.



الحياة.. أوهام لا تنتهى

فى أحيان كثيرة، يخطر لى أن حياتنا ليست إلا وهماً..
وأن ما فيها من كائنات حية، وحركة وامتداد زمنى، وأبعاد،
ومسافات ودوران للأرض ما هو إلا هواجس، أو كابوس، أو
أضغاث أحلام!

وهذا الخاطر يسيطر على نفسى كلما أصابنى مرض، أو
فقدت صديقاً.. فقدته ميتاً، أو حيّاً..!

وحياتى مشحونة دائماً بنوبات المرض، وعدد الأصدقاء
الذين فقدتهم موتى، أقل من عدد الأصدقاء الذين أفقدهم
وهم أحياء.

وكم أتساءل فى مرارة: ما هذه الحياة التى لا أعرف
كيف بدأت، ولا لماذا بدأت.. ثم أراها وهى تنتهى، دون
أن أدرك لماذا تنتهى؟

ونهاية الحياة بالنسبة لى ليست أن أموت، ولكن أن تختنق

أحلامي، ومشاعري وتتعقب الحية آمالي.. فأرى أن مشاعر
الحب، والخير، والوفاء التي ينبض بها قلبي، وتتجه في فرحة
ونشوة إلى كل الناس، قد تحولت عند بعض الناس إلى
صخب من الشر، والحقد والكراهية يمزق أعصابي، ويضغط
دمي، ويشيع في نفسي قلقاً، وخوفاً، وكآبة لا تعتريني
إلا عندما أسمع صفارة إنذار بغارة جوية، أو نقيب بومة أو
اللحن المميز للبرنامج الإذاعي، «خمس فرفشة»!

وفي الساعات القليلة التي أستريح فيها من شدة مرضي،
وحدة الغدر. تبدو لي الحياة أجل من أن يشوهها الحقد،
والجحود، وأقوى من أن ينال منها شيء.. فكل شيء مسخر
لبقائها.. الموت نفسه في خدمتها، فهو عندما يقبض روحاً إنما
يفسح المجال لخلق روح أكثر جدة، وأقوى حيوية.. إن فناء
ناس، وخلق ناس آخرين يجدد خلايا الحياة، وينشط غددها،
وينظم دورتها الدموية، ويجعلها دائماً في ريعان الشباب.

وأمس زارني صديق يعاني ما أعانيه من هواجس، إذا
ما حزنت، أو انتابني مرض، وعندما زارني كنت أعيش في
جو من الرضا، والتفاؤل والطمأنينة، وأخذت أبدد أوهامه

ومخاوفه بتجارى فى الحياة وهى تجارب تجمع بين الهزيمة والنصر، واليأس والأمل، والدعة والابتسامة..

قال لى بنبرة شاكية إن زميله فى العمل دس له عند مدير المكتب.

فسأته : وماذا جرى ؟ فقال : لا شىء.. فقد عرف المدير الحقيقة وأثنى على كفايتى ونزاهتى، وأقصى عنه الموظف الدساس..

- ولماذا أنت حزين ؟ ألا تكفيك هذه النتيجة ؟

قال : أؤكد لك أنى تأملت لما أصاب زميلى من عقاب، ولما أصابه من انتكاس فى أخلاقه وعواطفه. وعجبت كيف يصنع معى هذا وهو صديق منذ عهد الدراسة، ولقد ساعدته فى عمله، ووقفت إلى جانبه فى أزمات عصبية.

واستطرد يقول :

أليس عجيباً أن تحسن إلى الناس، فيسيئوا إليك.

قلت له : لا تظلم الناس فهم ليسوا جميعاً مثل زميلك، إن بينهم من يغلب عليهم الخسر فيمنحك الحب والود والغفران، وبينهم من يغلب عليه الشر فهو يحقد عليك لكل

سبب، ويدون. سبب، إذا كان ضعیفًا ولم تعطف عليه
كما يريد، حقد عليك.. وإذا عطفك عليه كما يشاء وأكثر
مما يشاء حقد عليك لأنك قوى، وهو ضعيف.

وقد علمتني التجارب أن أكون دائمًا مع المظلوم،
والذكى، وصاحب الموهبة، يستوى في ذلك من تنطوى روحه
على الخبث ومن تنطوى روحه على الطيبة.. ولكى أنفادى
أذى الجائحين إلى الشر تعودت أن أكم عنهم ما أقدمه لهم
من خير حتى لا يتعقبون بحقدهم.. أعرف واحدًا من الناس
أنقذته من الهمة أكثر من مرة.. وعرف من غيرى أنى وقفت
معه فى ثلاث مناسبات، فشكر لى موقفى منه، وأخجلنى
بعبارة المهلبة، ورنه صوته الحزين، وإشاراته المستكنة،
ونظراته التى تنبض بالحنان والدموع، وقد رأى أن يوقع بينى
وبين زملائى وبين رؤسائى فى العمل، وكنت شابا
صغيرًا، ولكنى لم أكن أحق فلم أحفل به وبعثة نهشنى
وعضنى، فلم أحقد عليه، وقلت لعله ظن أنه صار صاحب
أظفار وأنياب، وأراد أن يجرب قسدرته على النهش والعض
فجربها فى الرجل الذى يقف إلى جواره.

وقال لى أصدقائى: لماذا لا تصارحه بأنك منعت عنه

الأذى عشر مرات في سنة واحدة، مع أنه لم يكن يوماً ما صديقاً لك؟.

وقلت لأصدقائي: إذا كان قد نهشني وعضني بعد ما عرف أني وقفت معه ثلاث مرات فقط، فإذا عساه يصنع بي إذا عرف أني وقفت معه عشر مرات؟ إنه في هذه الحالة لن يكتفي بنهشي وعضي، ولكنه سيحاول قتلي.

وشكا لي صديق من أن زوجته أم أولاده تركته، وانفصلت عنه، ونازعته أمام المحاكم، وانتهى النزاع بالطلاق..

وسألته: هل كنت تحبها؟ فقال: ومازلت أحبها.

قلت: إن الطلاق، مثل الزواج، مثل الموت، قدر لا حيلة لنا فيه.. وأنت على أية حال أحسن حظاً من فلان.. فقد ضحى بثروته ومواهبه وأعماله الناجحة في سبيل زوجته، كانت مريضة إلى حد اليأس من الشفاء، أو تخفيف ضربات الألم، فطاف بها بلاد العالم، ودخل معها أكبر المستشفيات، واقتضاه مرضها الخيف أن يسهر على راحتها إذا نامت، وأن يسهر معها إذا أرقت، وكان يشعر بالأمها دون أن يتناول ما تتناوله من الأدوية المسكنة للألم.. وبعد خمس

سنوات من العذاب نجت من المرض بمعجزة، وعادت معه إلى بيته، ولكنها لم تعيش في البيت، وعاشت في بيت آخر، مع شخص آخر، فطلقها ومازال حتى هذه اللحظة يتلوى قلبه من الحزن، واللوعة والذهول!

وهذا صديق واسترد إيمانه بالإنسانية والإنسان.. وقال إذا كان الجحود يحض على الكفر، فالوفاء يدفع إلى الإيمان، والحياة فيها جحود وفيها وفاء، فلماذا نرضخ للجحود ونكفر بالحياة، ولماذا لا يستهونا الوفاء ونؤمن بالحياة؟

وسألته: كيف حال صحتك الآن؟ فقال: حالتي الصحية طيبة جدًا.

ألم تعد تشكو من الانقباض والأرق ووجع الظهر والصدر؟

قال الصديق: لقد زالت هذه الأعراض من يوم أن تحدثت مع الدكتور «ميم» في التليفون.. والفضل لك.. فقد أعطيتني رقم البيت الذي كان يعود فيه أحد مرضاه.. ولم أشرح له حالتي طمأنني، ونصحني بأن أستمّر في تناول الدواء الذي وصفه لي من قبل! فضحكت في وجه صديق

بصورة غير عادية، وسألني : لماذا تضحك هكذا ؟ وكنمت ضحكى، ونقلت الحديث إلى موضوع آخر..

وعندما يقرأ صديق هذه العبارات سيعلم لماذا ضحكت ؟..

كان صديق يشكو من آلام فى ظهره وصدره، وتوهم أنه مريض بالقلب، فدخل المستشفى، وأجرى عدة فحوصات وتحليلات وأشعة، وزار عددًا كبيرًا من الأطباء، فطمأنوه على حالته، ولكنه لم يطمئن. وقال لى إنه يريد أن يعرض نفسه على الدكتور «ميم» بالذات.. وأنا أعلم أن الوصول إلى الدكتور «ميم» يحتاج إلى أن يستخدم المريض صاروخًا يخترق به فضاء الأيام والأسابيع ! واستطعنا أن نجد هذا الصاروخ ووصلنا إلى الدكتور «ميم» وقام بدراسة الصديق المريض. ودراسة تقارير الأطباء والمعامل، وأكد أن صديقنا لا يحتاج إلا إلى تناول ثلاث حبات من «فيتامين ب» كل يوم.

واطمئن الصديق، ومارس حياته بتفائل وثقة، ومنذ أسبوع اتصل بى ليلا، بواسطة تليفون الجريدة التى أعمل بها، وسألنى أين الدكتور «ميم» وقلت له إن العقبات التى وجدناها

فى العثور عليه أول مرة، تجعلنى أياس من البحث عنه مرة
أخرى!

قال: ولكنى مريض.. عندى أرق شديد، وإذا لم يرن
الدكتور «ميم» هذه الليلة، فلن أعيش حتى أرى الصبح!

وقلت له إن الدكتور «ميم» يزور الآن أحد المرضى،
ويمكنك الاتصال به تليفونياً فى هذا الرقم، وأعطيته رقم
تليفون الخاص.

وبعد دقيقتين دق جرس تليفونى وجرى الحديث بين
صديق وبنى على النحو الآتى:

الصديق: الدكتور «ميم» موجود؟

- لحظة من فضلك؟

ثم ارتفع صوت بنبرة مختلفة عن نبرق الطبيعية، وقلت:
أنا الدكتور «ميم».

الصديق: لا تؤاخذى.. إذا كنت قد طلبتك فى وقت
غير مناسب، وظرف غير مناسب..

- العفو.. أنت مواظب على تناول «فيتامين ب».

الصدیق : نعم.. لكنى شعرت الليلة بأرق، مصحوب
بألم خفيف فى الظهر.

اشرب فنجاناً من النعناع الساخن، واستمر فى تناول
فيتامين ب وبعد أسبوع اتصل بى لأراك فى العيادة.

الصدیق : متشكر يا دكتور.

وفى اليوم التالى اتصلت بصدیق وسألته : ماذا صنع
أمس، فحكى لى ما دار بينه وبين الدكتور «ميم» وقال :
إن هذا الرجل ساحر.. المكلمة التليفونية معه أراحت أعصابى
وهيأت لى نومًا عميقًا مريحًا.

ولما سألته أمس، متى تتصل بالدكتور «ميم» ؟

قال : ليس الآن فأنا بخير والحمد لله !

ما أشقى هؤلاء الذين يمرضون بالوهم فيلجأون إلى
الطبيب والدواء.. مع أن مرض الوهم لا علاج له
إلا الوهم !

وأنا واحد من هؤلاء الأشقياء !

من أين.. وإلى أين؟

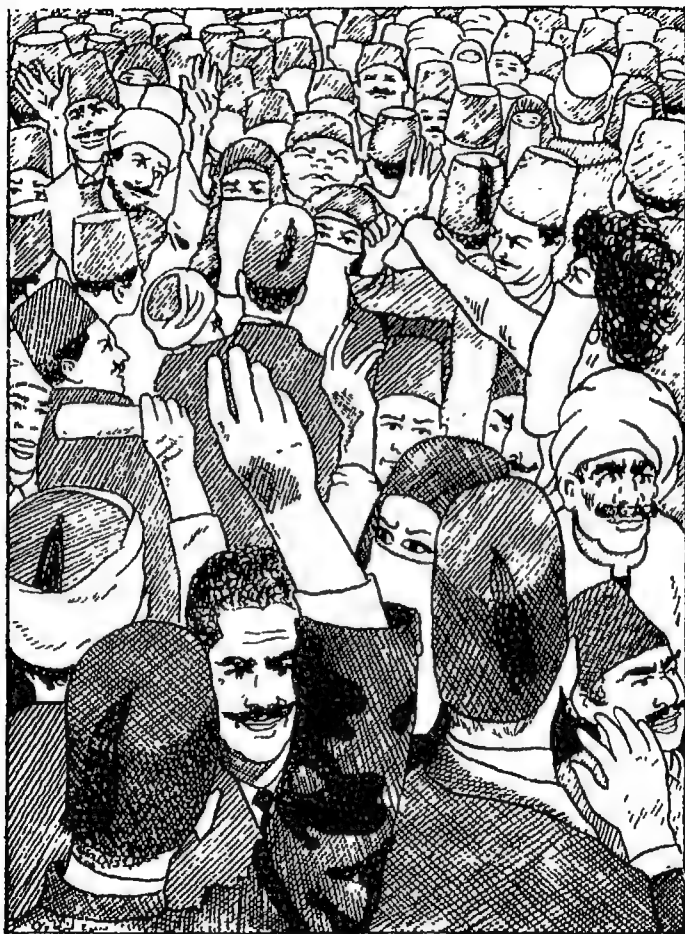
السؤال الذى شغل أذهان الحكماء منذ الأزل هو: من أين نحن؟ وإلى أين المصير؟ كيف بدأ الكون وكيف ينتهى؟

ومساكين هؤلاء الحكماء... إن السؤال مازال حتى هذه اللحظة يقرع رؤوسهم كمطرقة، وينفذ فى عقولهم كمسار.. وعبثاً يحاولون أن يجدوا الجواب الذى يجنبهم ضربات المطرقة، أو يخفف من وخزات المسار!

وفى هذا اليوم بدأ سؤال «من أين؟ وإلى أين؟» يتسلل إلى ذهني، كما لو كنت فيلسوفاً، أو حكيماً.. ولم يأخذنى الزهو، فإن مأساة الكون والكائنات، لم تكن مشار السؤال، وإنما الذى أثار سؤالى مأساة أخرى عشت جزءاً كبيراً من بدايتها، ونهايتها.. وأعيش الآن فى نتائجها! وليس عسيراً أن أعرف الجواب عن سؤالى.. فقد وجدت الجواب، ووجدته معى الواقع والتاريخ!

إنها مأساة الاحتلال البريطاني لبلدى. الاحتلال الذى دام أكثر من سبعين عاماً.. وقامت فى وجهه انتفاضات شعبية نائرة، تحولت إلى مناورات سياسية، وتسولاها الزعماء والأحزاب، وكان رد الفعل الطبيعى لهذه المناورات، أن بقيت الجيوش المحتلة فى بلادنا، وأصبح جلاء القوات البريطانية عن أراضينا لا يتجاوز حدود الأمانة الجريئة، والأمل المستحيل!

فئذ عام ١٨٨٢، عندما غزا الجيش البريطانى أرضنا ليحمى عرش الخديو توفيق من ثورة عرابى.. ثورة الشعب على السلطة الدخيلة.. التى سامته الخسف والهوان، فجعلت من حثالة الكرد والأتراك أهل السيطرة فى الجيش، وجعلت منهم ومن اليهود، وشراذم الأجانب حكاماً يأخذون من الفلاح عرقه وكدحه بالقوة والإرهاب، ويقلمونه إلى الخديو أموالاً طائلة لا يخصص منها لأفراد الشعب إلا ثمن السياط التى يلهب بها ظهورهم - كان الشعب مقوس الظهر، أصفر الجبين يتصبب عرقاً، ويتضور جوعاً. ومع ذلك تجاوب مع ثورة عرابى وإخوانه الضباط، عندما تمردوا على الظلم، وثاروا فى وجه الخديو، وطالبوا بحق الشعب فى أن يتولى بنفسه قيادة جيشه. ونزل الخديو مرغماً على إرادة الجيش التى هى إرادة



وجاءت حركة ١٩١٩ [ص ٢٣]

الشعب، ولكن ما لبث أن اتصل بالإنجليز. وطلب حمايته من
 الثائرين، وجاءت الجيوش البريطانية الغازية وقاومها الشعب
 والجيوش. وانهزمنا، لا لأننا ضعفاء عسكرياً، فعندما يخوض
 الشعب المعركة يصبح بلا سلاح - أقوى من أى جيش مزود
 بأفتك الأسلحة. وإنما يهزم الشعب إذا انبعث من صميمه
 خيانة، أو يأس، أو انحراف. وقد انهزمنا، لأن بعض أعوان
 عرابى خانوه. وباعوا أنفسهم للقوات المحتلة !

منذ ذلك التاريخ، كان يحكمنا خديو ويستمد شرعية
 سلطته من دولة أجنبية هي تركيا.. وتحميه فى بلادنا قوات
 دولة أجنبية هي بريطانيا. وأصبحنا غرباء فى بلادنا. كنا فى
 وطننا أشبه بلاجئين تسومهم الدولة التى لجأنا إليها الخسف،
 وسوء العذاب.

كانت مصر بالنسبة إلينا، سجنًا كبيرًا، ترسّف فيه
 خطواتنا، وكان حتمًا علينا نحن المسجونين أن نساق إلى
 الجبل، فنقطع الصخور ونحملها على أكتافنا، ونقف فى الحقول
 لنحرقها ونزرعها، ويحبنى غيرنا ثمارها. كنا شعبًا مخنوق الخطى،
 لاهث الأنفاس، وبرغم ذلك لم نستسلم. ولكن قساومنا،

وظهرت حركة مصطفى كامل، واتجهت إلى تأليب الرأي العام على الجرائم التي ترتكبها بريطانيا في مصر، وكان الشعب يفعل بحماسة الزعيم الشاب، وتآلف الحزب الوطني الجديد. وكان واضحاً من منهجه أنه يريد جلاء الإنجليز. وينؤيد بقاء السلطة الشرعية أى الخديو، ويتمسك بالخلافة كمظهر للوحدة الإسلامية.

وظهر حزب الإصلاح. وحزب الأمة، وأحزاب أخرى بأسماء متعددة، وكانت هذه الأحزاب جميعاً تميل إلى مهادنة الإنجليز حتى تتخلص من حكم أسرة محمد على، وكانت تؤمن بأن جلاء الاحتلال يمكن أن يتم بالتفاهم والمساومة والمفاوضة مع المحتلين.. وبدلاً من أن تتحد الجهود لمقاومة الاحتلال ومقاومة القصر، نشبت المعارك بين السياسة والأحزاب وظلت مصر يتنازعها حكام أجنيان. أحدهما مقره قصر الدوبارة. والآخر مقره قصر عابدين!

ثم جاءت حركة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول وتم تأليف الوفد المصري. وكان مذهبه السعى إلى الاستقلال ما وجد إلى ذلك سبيلاً. وقد بدأت هذه الحركة بالمفاوضة مع

الإنجليز.. وانتهت بالمفاوضة مع الإنجليز! وبقي الإنجليز كما هم يحتلون أرضنا، ويوجهون سياستنا، الداخلية والخارجية. وكلما ثرنا على معاهدة من معاهداتهم، دخلوا معنا في مفاوضات للحصول على معاهدة أخرى. وكل هذه المعاهدات تعترف لنا بنوع من الاستقلال، وتسلبنا كل أنواع الاستقلال، كلها كانت حقوقًا والتزامات، الحقوق للإنجليز، والتزامات لنا!

وقد تفرع عن الوفد أحزاب حاربت الوفد في أشخاصه، وسارت على منهجه، فهي تفاوض لتحصل على المعاهدة، وتحصل على تأليف الوزارة. وتكوين أغلبية برلمانية لها!

وأدرك الشعب ما في هذه الأساليب جميعًا من سلبية قاتلة لآماله وطموحه، فكان يعلن سخطه على الحكومة والمعارضة على القصر والاحتلال. السخط هو الملامح الواضحة في وجه الشعب.. ولكن السخط يجب أن يتحول إلى عمل إيجابي، وإلا كان هو الآخر منهجًا لحزب يتكلم ولا يعمل، ويدخل مع الإنجليز في مساومات هدفها أن يظفر بكراسي الحكم، وبالأغلبية البرلمانية في ظل الملك وفي حماية المندوب السامي البريطاني.

وكانت ثورة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢ لم يقم بها ساسة،
 أو زعماء ولكن قام بها شبان من الجيش لا يعرف الشعب
 أسماءهم.. وحاصرت القوات الشائرة، قصور الملك، ودار
 الإذاعة، وفي الساعة السابعة صباحًا أذاع أنور السادات أول
 بيان لهم ووضع الناس أيديهم على قلوبهم خوفًا من أن
 يستعين الملك بقوات الاحتلال القائمة في القنال، على تحطيم
 الثورة والثائرين.. ولكن لم تمض ساعة، بل دقائق، حتى
 كانت مصر من أقصاها إلى أقصاها، كتائب ضخمة انضمت
 إلى الضباط الأحرار. فقد أحس الشعب أن هذه الثورة تعبر
 بصدق، وعمق، ووضوح عن استنكاره لانحلال الملك،
 واحتلال الإنجليز، وتهاون الساسة والأحزاب في حق البلد،
 وكرامته، وعزته.

وسارت الثورة بخطى واثقة ثابتة، تملئ إرادتها، فخلعت
 الملك من العرش، ودحرجت تاجه، وأحس النفوذ الأمريكي
 والاحتلال البريطاني أن هذه ليست ثورة مئات من الضباط،
 ولكن ثورة ملايين الشعب. وحاول الديبلوماسيون الأجانب
 إخماد الثورة، وكبح جماحها، بالطرق السلمية الملتوية. ولكنهم
 وجدوا أن إصرار الثائرين ليس إصرارًا فرديًا، ولكنه إصرار

شعبي جماعى. فانتظروا أن تتاح لهم فرصة يحولون فيها وطنية الثورة إلى سياسة، ويستخدمون مع القادة الجدد أساليب المساومة التي استخدموها مع الساسة القدامى!

وأعلن الزعيم الخالد جمال عبد الناصر في أول تصريح له نشرته صحف العالم وإذاعاته، أن على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل!

وكان ما قاله قائد الثورة أول ضوء كشف خطة الشائرين تجاه الاحتلال. فقد كان معروفاً أننا مرتبطون بمعاهدة تشدنا بعerie الإنجليز. وأن مقاومة الشائرين للأحزاب والإقطاع والفساد، لا تدع لهم وقتاً يتفرغون فيه لمحاربة الإنجليز. . وليس هذا فحسب، فالثورة الجديدة لم تحبس نظرتها داخل مصر. ولكن أطلقت نظراتها، واهتماماتها إلى الجنوب والشمال، وإلى المجال الدولي، وإلى إعادة فلسطين. . فكيف يمكن أن تحارب في كل هذه الجبهات، وتفتح جبهة جديدة، هي جلاء القوات البريطانية، التي تحتل أرض مصر بوثيقة وقعها سياسة مصر!

ولكن الثورة رأت أن هذه كلها ليست جبهات متعددة،

إنما هي جبهة واحدة، تتألف من قوى مختلفة. فأصرت على الجلاء، وتصفية قاعدة قناة السويس، ودخلت بريطانيا في مفاوضات مع الساسة الجدد ولكنهم لم يكونوا ساسة بل كانوا وطنيين. فلم يقبلوا النصوص المطاطة، وتمسكوا بأن تكون النصوص كإرادتهم من صلب، لا يتلوى ولا يلين وفي ١٨ يونية عام ١٩٥٦ تم جلاء آخر جندي بريطاني من أرضنا، ورفع الزعيم الخالد جمال عبد الناصر علم مصر، في المكان الذي كان يرثى فيه علم بريطانيا.

ولم يمض على جلاء القوات البريطانية بضعة أشهر، حتى عادت هذه القوات، ومعها قوات فرنسا وإسرائيل، لتغزو بلادنا، بأسلحة كان حلف الأطلنطي قد أعدها لمحاربة روسيا! وانهمز الغزاة. فعندما رفض الزعيم الخالد جمال عبد الناصر إنذار الدول الغازية، وصلى: سنحارب، كان يعبر عن نبضات القلوب وخلجات الأنفس لا في مصر وحدها، ولكن في البلاد العربية كلها. وحاربنا، وانتصرنا وأصبحت بلادنا لنا، وانبعثت من نهضتنا شرارات الحرية، والاشتراكية والحياد الإيجابي، توقد النار في آسيا وإفريقيا.

فتحرق الاستعمار، والرجعية، وتضئ المشاعل للشعوب التى تريد حريتها.

إن الذين عاشوا فى عصر الاحتلال، أحسوا الغربة فى بلادهم لأنها لم تكن لهم.. وهم فى عيد الجلاء، يحسون غربة من نوع جديد.. إن مصر التى عرفوها لم تكن هكذا.. أين الجنود الإنجليز الذين كانوا يطلون الشوارع بأحذيتهم فتتخلع منهم القلوب رعباً وخشية؟ أين السفير البريطانى الذى كان يعين الوزارات ويقيلها باسم مستعار هو اسم الملك؟ أين القوات البريطانية التى كانت تحتل القاهرة، والإسكندرية، ومنطقة الإسماعيلية؟

أين تلك الأيام التى كان يحكم فيها الوزارات مستشار أو مفتش. فإذا انتقل إلى مكان فى أى بلد، ارتعدت منه الفرائص.. وكان بعضهم يذهب إلى مكان بشخصه، ويذهب إلى مكان آخر فى الوقت نفسه بقبعته يحملها مندوب عنه! وكان ذعر الناس من القبعة يساوى ذعرهم من صاحبها! كان الذين ينادون بالجلاء، مجانين فى نظر العقلاء، مكانهم الطبيعى مستشفى المجاذيب!

وقد تحقق الحلم المجنون، وأصبح المستحيل حقيقة، ولم يعد في مصر احتلال أجنبي، ولا سيطرة دخيلة. فالثورة التي قامت لم تكن ثورة شعارات وأمان، ولكن كانت ثورة مبادئ وإرادة لم تكن ثورة كلام، ولكن كانت ثورة عمل.

تحية للثورة التي حررت بلادى من الاستعمار. تحية للصيحة الأولى التي أطلقها الزعيم الخالد جمال: على الاستعمار أن يحمل عصاه فوق كتفيه ويرحل، وللصيحة الأخيرة التي أطلقها الزعيم الخالد جمال: سنحارب!

فمن هاتين الصيحتين اندفع الشعب بكل ما فيه من قوة وعناد في العمل على تطهير بلاده من الاحتلال الذي بدأ في عام ١٨٨٢، والاحتلال الذي عاد من جديد في أواخر عام ١٩٥٦.

إن هذا الجيل يملكه الزهو وهو يرى بلده ينمو، وينبض ويتحرك ويصعد، ولكن أمثال من أبناء الجيل الماضي يملكهم ما هو أكبر من الزهو. فقد شهد بلدنا والأغلال تلف عنقه، ويديه، ورجليه. ورأيناه وهو يكسر الأغلال.. شهدناه في الأسر، ورأيناه حرًا. شهدناه في الهوة، ورأيناه في القمة.

عقوبة الموت.. وعقوبة الحياة!

هل هناك خلاف على أن قتل النفس البريئة جريمة يعاقب عليها الدين والقانون؟ لا.. ومع ذلك فهناك جريمة قتل نعاقب من يقترفها بالموت، وجريمة قتل نعاقب من يرتكبها بالسجن، وهكذا تتفاوت الأحكام بالنسبة إلى قاتلين، تقف جريمة كل منهما مع الأخرى، على قدم المساواة، لماذا لأننا في أحكامنا لا نخضع لنص جامد أعمى، ولكن نخضع لظروف متحركة بصيرة، فمن يزهد روحاً دفاعاً عن نفسه أو عرضه، أو وطنه. ليس كمن يقتل بدافع من السرقة، أو التشفى، أو شذوذ المزاج.

ومن يسرق لأنه جائع، ليس كمن يسرق لأنه يطمع في أن ينمى ثراه الفاحش!

فالجريمتان قد تتشابهان في الصورة والشكل، ولكنهما تختلفان في الحافز، والجو، والهدف، ومن أجل هذا تتباين الأحكام في جريمة واحدة ثابتة، فيحكم القاضي بإعدام قاتل،

ويحكم القاضي نفسه ببراءة قاتل آخر!

ولكن هذا استطراد، قد يبعدني عن موضوعي الذي أريد أن أعالجه، والموضوع حادث قتل، وقع هنا في بلدنا منذ حين، واعترف القاتل بكل شيء، وإذا كان الاعتراف سيد أدلة الإدانة، فهو هنا سيد أدلة البراءة.. والقاتل سيدة، أم قتلت جنيها عمداً، وأثبت المحضر الرسمي لتحقيق النيابة أنها بذلت في سبيل ذلك محاولات كثيرة، حملت أشياء ثقيلة فوق بطنها، وأرهقت نفسها بأعمال مضيئة، ولما فشلت محاولاتها في التخلص من الجنين، لجأت إلى طريقة قاسية فأصيبت بنزيف شديد، وأصبحت على حافة الموت، وقد اعترفت أمام النيابة العامة بأنها قتلت جنيها، وبررت فعلتها بأنها منذ اليوم الأول من زواجها دب الخلاف بينها وبين زوجها، فلما عرفت أنها حامل، خافت أن يكون حملها منه سبباً في الإبقاء على حياتها الزوجية، التي تمارسها على مضض.

ورأت النيابة أن التهمة لاصقة بالأم، تهمة إجهاض نفسها، وقتل جنيها، ولكن النيابة رأت أيضاً أن تحفظ القضية، وجاء في قرار الحفظ أن الباعث على الإجهاض هو رغبة الأم في إضعاف الصلة بينها وبين زوجها، لعلمها بأنه

لا يمكن أن تستمر في الحياة معه. ولاعتقادها بأن إنجابها منه سيريّط بينها، على حين أنها راغبة في الانفصال عنه، زيادة على أنها جنبّت وليدها الشقاء الذي كان يتظره إذا ما تم طلاقها من زوجها، ونشأ هذا الطفل بعيداً عن أبيه في جو مشبع بالنزاع، وذهبت النيابة إلى أنه يكفي الزوجة عقاباً لها، حرمانها من فلذة كبدها، وأشارت إلى أن تقديم هذه السيدة إلى المحاكمة سيقضى على مستقبلها.

أثار هذا الحادث في رأسي ألواناً شتى من الأفكار والتأملات.

مثلاً.. ماذا يكون تصرف النيابة إزاء رجل يزهد روح ابنه الجنين؟ هل تحفظ القضية بالنسبة إلى الأب، كما حفظتها بالنسبة إلى الأم؟ إن القياس هنا يبدو متساوياً، فالأب والأم كلاهما واحد. وقد يرى المنطق أن من حق من أوجد أن يتصرف فيما أوجده! ولكن هل صحيح أن مكانة الأب من الطفل تساوي مكانة الأم؟ إن بعض المفكرين القدامى حددوا الفرق بين اليقين والثقة، بأن اليقين هو أن الأم والدة.. والثقة هي أن الأب والد، فالأم إذا أساءت التصرف في

ولدها أحسنا الظن بنيتها، لأننا على يقين من أنها أم الولد، ولكن الوالد إذا أساء التصرف في ابنه، فإن سوء الظن يسكه من تلابيه، لأن الأبوة ليست يقيناً يصمد أمام الظنون، ولكنها ثقة تتعرض للانهايار.

والرأى عندى أن الأبوة مثل الأمومة يقين، وأن إقدام والد أو أم على قتل الابن، مثل إقدام الابن على قتل أمه وأبيه، دافعه الحقيقي الانحراف النفسى، أو الانحراف الذهني.

وأنا أومن بالحياة، وأومن بحق كل إنسان في أن يحيا، وأنه ليس لأحد أن يحرم كائناً حياته إلا بالطريقة التي رسمتها القوانين، وما أكثر ما نضيق بحياتنا، ونشقى، ونتعذب، ولكن لا ينبغي أن نهرب من الحياة بأن نتحجر، أو نقتل سوانا، ولو بدافع الرحمة والشفقة!

والذين ضاقوا بالحياة ألوان شتى، بينهم الأتقياء، والملاحدون، والحكماء، والحمقى.. الأتقياء استعذبوا الألم واحتملوه، والملاحدون اكتفوا بالسخط والتمرد، والحكماء فكروا وتألوا، والحمقى هم وحدهم الذين لجأوا إلى الانتحار! وكم توارد في أذهان بعض الفلاسفة أن الحياة ليست

فرصة للأحياء ولكنها حكم بإدانتهم.. حكم عليهم بأن
يعيشوا!

ولكن هذا الذى ورد فى الأذهان فكرة، رأيناه نظرية
تطبقها أم على جنينها.. فقد رأت أن تنقذ ابنها من جريمة
الحياة.. فحكمت له بالموت!

إننى أتوقع أن ينبى أحد، ويطعن فى هذا الحكم، على
أساس أن الأم ليست قاضية حتى تحكم بإزهاق روح، ولو
كانت هذه الروح جنينها.. أو على أساس أنها قاض تحيز
لابنه.. فحكم له بالموت، بدلا من أن يحكم عليه بالحياة!



أيها أقسى : الموت.. أم الحياة؟

عانيت في هذا اليوم من اللوعة والانقباض ما لم أعان مثله في يوم من الأيام..

كنت في المستشفى، وهبط الأطباء من الدور العلوى، بعد ما رأوا المريض الذى جئنا لنسأل عنه، و لا نستطيع أن نراه.

ورسم الأطباء على شفاههم الابتسامات التى ظلوا شهوياً طويلة يظهرون بها أمام الناس، فهى قناع يخفى الحقيقة المؤلمة.. وهى أن الموت أصبح الزائر الوحيد الذى لا يستطيع أحد منعه من دخول غرفة المريض!

وصحبت أحد الأطباء وهو يغادر المستشفى، ولم يكذب يخلو بى، حتى اختفت ابتسامته، واغرورت عيناه بالدموع.

وسألته : أليس هناك أمل، رجاء، معجزة؟ فأجاب : العلم يقول لا، والتجربة تقول لا، والله وحده هو القادر على

أن يقول نعم، ولكن يظهر أنه سبحانه لا يريد أن يقوّلها.
فقد أصبح الموت يعيش مع المريض. ويعيش في دمه وأنفاسه
وكل ما في جسمه المرهق الممزق، من قلب، وكبد، وكليتين،
وأعضاء، وشرابين.

واستطرد الطبيب يقول: إننا لا نعالج هذا الإنسان
الرقيق بالطب والعلم، ولكن نعالجه بقوة الإرادة إرادتنا
 وإرادته، وإرادة الذين يحبونه، ما أكثرهم!.. طفله المريض
بالشلل، بناته الصغار أمه، زوجته إخوته، رفاقه في الثورة،
زملاؤه في العمل، أصدقاؤه في كل مكان.

ونحنقت العبرات صوق، وأحسست أن للدموع قبضة
تضغط رأسي وعنقي. وحاولت أن أهرب من الواقع المر إلى
أمل حلوه، إلى وهم، إلى سراب، فلم أجد غير اليأس. وكم
كنت أجد في اليأس راحة، ولكن يأس اليوم، كان نازلاً
تكوى قلبي.

وعدت إلى المستشفى صامتاً. وكل من حولى صامت. لقد
تحول المستشفى إلى ضريح.

صحوة الموت

اتصلت في اليوم التالى بالمستشفى فى الساعة العاشرة صباحاً، وسألت كيف الحال؟ وقيل لى: لقد حدثت المعجزة.. فقد تحرك وتكلم.

وفرحت بما سمعته فى التليفون، ولكن فرحى كان كعمر المريض الحبيب قصيراً..

فقبل الساعة الثانية عشرة، دق جرس التليفون فى بيتى، وكانت دقائقه أشبه بنعيق الغراب، وسمعت النبأ الجسم.

بعد ساعتين كنت فى المستشفى، لا أحد يستطيع أن يميز بين الإخوة، والأبناء، والأطباء والأصدقاء، والممرضين والموظفين والزوار العاديين، فقد خلقت بينهم السموغ والانفعالات مشابهة فى الملامح، والقسمات والشعور.

وأخذت تأملاتى تقتحم أحزاني. وتلهب أعصابى بالأسئلة العنيفة المضنية: إذا كانت هذه هى نهاية كل حى فلماذا نخاف الموت أو نبكى عل من مات؟ إن الحياة عذاب والموت

راحة، الحياة سجن والموت حرية، فكيف نتشبث بالعذاب
والسجن، ونهيب الراحة والحرية؟

أيها أقسى: الحياة أم الموت؟ كلاهما قاس. الحياة قاسية
على من يشقيهم المرض. والموت قاس على من يعيش ويفارقه
أحباؤه. يفارقونه وفي رؤوسهم وعواطفهم كثير يريدون أن
يمنحوه للحياة!

الحب الحزين

ليست هذه جنازة تضم عشرات الألوف مشوا وراء
نعش. وعشرات الألوف وقفوا فوق الأرصفة وأطلوا من
النوافذ والشرفات وقد استولى عليهم الحزن والوجوم والكآبة.
ولما هذه مظاهرة شعبية إنسانية للقيم والمبادئ التي كان صلاح
سالم يحمل لواءها مع قائده وقائدنا جمال عبد الناصر.

وعندما رأيت جمال عبد الناصر في المستشفى يبكي صديقه
بدمعه وقلبه رأيت فيه الإنسان. وعندما قرأت بيانه الذي دعا
فيه الأمة إلى أن تشاركه حزنه على صديقه وزميله تمثل أمامي
وفاء الصديق وعظمة الزعيم، وعندما شاهدت هذه المجموع

المائلة تشيع جنازة صلاح سالم شعرت بأن الجماهير لا تودع
راحلا، ولكن تصنع بعبراتها، ونحيبها تمثالا للمعانى التى يرمز
إليها صلاح سالم العبقري الثائر.

كانت الجنازة الرهيبية المهيبة، استفتاء شعبياً منح فيه
الشعب ثقته المطلقة بالثورة التى كان صلاح سالم واحداً من
جنودها البسلاء، وعبر فيها عن حبه الحزين لصلاح الإنسان
الجدير بأن نحبه دائماً، وأن نحزن عليه إلى الأبد.



إلى أين يا أصدقاء...؟

عشت لحظات رهبة نهباً لليأس، ونهباً للأمل.. كنت
أظن أن الأمل أرحم من اليأس، ولكن ظني خاب، فقد
شعرت بقسوة الأمل تضغط دمي، وتحرق أعصابي..

قيل لنا في أول الليل إن الطائرة ضلت الطريق بين
جنيف وروما وأن احتمال سقوطها أو احتراقها ليس هو
الاحتمال الوحيد.. ثم أذاعت وكالات الأنباء أن الطائرة
عادت إلى جنيف فعلاً.. ولم تمض دقائق حتى جاءت برقية
تؤكد أن الطائرة مفقودة.. وكانت قلوبنا تعلق وتهبط مع الأمل
في العثور على الطائرة، أو الأمل في أن تكون قد اضطرت
إلى النزول في مكان ما دون أن يصاب ركابها بسوء.. وأخيراً
عرفنا الحقيقة المجردة من خداع الأمل، عرفنا النبأ الفاجع..
عرفنا أن الطائرة وركاب الطائرة ذهبوا جميعاً مع الريح.. وأن
بين ركابها عربياً واحداً هو زميلي وصديقي فرج جبران.

ولجأت إلى دموعي ولكني لم أستطع البكاء.. كانت

الحسرة تملأ صدرى، أحسست أن جفونى لا تنزف دمعاً،
ولكن تنزف سعيّاً.

وأخذت أصدق فى غير شىء بنظرات غيبية بلهاء.
ما جدوى أن نبكى أو لا نبكى؟ ما جدوى أن نتعذب
بالأمل الخادع، أو نتحصن باليأس المريح؟ كيف نواجه
الحياة؟ كيف نواجه الموت؟ وأيهما أقسى علينا أن نعرف كيف
نعيش، أو أن نعرف كيف نموت؟

وهل لنا إرادة فى الحياة أو الموت، ما هذا الإنسان الذى
لا يستطيع أن يدرك من أين جاء وإلى أين يمضى؟ ومع ذلك
فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى ميزه الله على سائر
الحيوانات بالعقل والإدراك!

والحياة، والموت، والبدء، والنهاية مشكلة أزلية نعانيها،
ولكنها لا تتعرض لتفكيرنا إلا إذا مستنا فى أنفسنا أو
أصدقائنا، ولعلها المشكلة الوحيدة التى يتساوى فيها أن نفكر،
أو لا نفكر!

فى هذه السنوات الأخيرة، شيعت عشرات من الأصدقاء
إلى المصير المحتوم، وأتلفت حولى فلا أجد من أصدقاء الطفولة

إلا بضعة أصدقاء، كم أتمنى أن أموت قبلهم، فلم يعد في قلبي ولا في عيني مكان لحزن جديد، أو دمة جديدة!

عرفت فرج جبران عام ١٩٤٠ كنا زميلين في آخر ساعة، وأخبار اليوم، والجمهورية كان فرج جبران يبتسم للحياة بكل قلبه، وما أظن أن الحياة ابتسمت له من قلبها يوماً، فقد كان يكذب ويكنح في وظيفته، وفي عمله الصحفي، وفي دراساته المتعددة وفي تأليف الكتب والقصص، وترجمة الآثار العالمية، وفي رحلاته الكثيرة إلى جميع بلدان العالم.

هذا الإنسان المتفائل المبتسم الذي كتب آلاف المقالات، وأصدر عشرات الكتب، كان يقاوم المرض، والإرهاق، حتى لا يقل إنتاجه، فيقل تبعاً لذلك مستوى معيشته هو وأسرته. وهي معيشة خالية من البذخ، فإن فرج جبران لم يكن يعرف البذخ إلا في الدراسة والعمل.

يا صديقي، يا زميلي، لا أعرف كيف أبكيك فقد أعجزني الحزن حتى عن البكاء.

الحق... والحياة!

قال لى طبيي إن نسبة السكر فى دمي قد ارتفعت بصورة تدعونى إلى الحيلة والحذر.. وأخذ يشرح تقرير طبيي التحليل، ويضع خطوطاً تحت الفقرات الهامة التى تضمنها التقرير، ثم أعطانى قائمة بالأدوية التى يجب أن أستعملها حتى أقاوم خطر ارتفاع نسبة السكر.. وبدأ من نبرات صوته أنه لا يصف لى علاجاً ولكن يرثينى بكلمة تأبين.. وأحسست وهو يودعنى إلى باب غرفته أنه لا يودع صديقاً ولكن يشيع جنازة!

وكننت منذ دخل السكر حياتى، أفزع إذا ما ارتفعت نسبة السكر وأظلل أوجه إلى طبيي أسئلة تدل على خوفى من الموت، وتشبى بالحياة.

فى هذه المرة لم أفزع، ولم أسأل الطبيب عما إذا كان هناك خطر على حياتى؟

وأخذت منه قائمة الأدوية الجديدة، وأحسست وأنا أضعها
 في جيبى أن رصيدي من الأدوية قد تضخم.. وهكذا أصبح
 لى رصيدين بلغا من الضخامة والجسامة أقصى الحدود..
 رصيدي من الأدوية، ورصيدي من الديون!

وذهبت إلى البيت، وأخلدت إلى نفسى أفكر فيما ينتظرنى،
 أو أنتظره.. بعدما ساءت حالتى الصحية؟ وما الذى نتظره
 أو ينتظرننا، إذا مرضنا إلا الموت..

وأعترف بأنه حدث أكثر من مرة أن مرضاً خطيراً عرضنى
 لموت محقق، وكنت كلما نجوت بحياتى أفرح وأنشى، فقد كان
 شعورى برهبة الموت يفتت قلبى، ويسحق أعصابى ويشير
 الرعب فى دماغى وعروقى.. كان الموت هو عدوى الوحيد
 الذى أخشى لقاءه! ولعل هذا هو إحساس الناس جميعاً ولا
 أدرى لماذا؟ فإنهم مثلى لا يعرفون ما هى الحياة؟ ولا يعرفون
 ما هو الموت؟ هل الموت منفصل عن الحياة؟ وكيف ينفصل
 منها وهو لا يكون إلا بها. فلا موت بغير حياة أو لغير
 حياة؟ وهل الموت متصل بالحياة؟ لماذا إذن تنبيهه ونجفل منه،
 فى حين نقبل على الحياة ونطمئن إليها؟ هل هو نهاية شاذة

للأحياء؟ كيف يكون ذلك وكل من سبقنا من الأحياء انتهوا بالموت؟ هل هو نهاية طبيعية لكل ما هو حي؟ إنه كذلك فعلاً.. فكيف نحاول أن نفر من نهايتنا وإلى أين الفرار؟

ومع ذلك فما أكثر ما أحببت الحياة! وما أكثر ما كرهت الموت، دون أن أفهم لماذا أحسب، أو لماذا أكره؟ كل ما أدركه الآن من أسباب حرصى على أن أحيأ، هو أنه كان لى فى الحياة ما أريده وكان عندى للحياة ما أعطيه!

واليوم تغيرت نظرتى إلى الموت.. لم يعد الموت ذلك العدو الذى يخيفنى، بل لعله صار صديقاً.. ولهذا لم ترتعد فرائصى وأنا أرى خطر مرضى مدعماً بالبيانات والأرقام والتحليل! ولست فى ذلك متشائماً أو يائساً فموت الأحياء تجديد للحياة.. إنه يخلق مقاعد العجزة والمرضى والضعفاء لأحياء جدد قادرين، أصحاء، أقوياء.. ولو لم يكن الموت لتجمدت الدنيا على حالة واحدة، أو ضاقت بمن فيها، بحيث لا يستطيع أحد أن يتحرك من مكانه! إننا مع الموت نشكو من تزايد عدد البشرية.. وضيق المجال الحيوى وقد دفعتنا الحاجة التى هى أم الاختراع إلى أن نبحث لسكان الكوكب

الأرضى عن كواكب أخرى يسكنونها ويستغلونها، فغزونا الفضاء، وطرقنا باب القمر، وسيطرق عما قريب باب المريخ ! فكيف يكون حال البشرية لو انعدم الموت، أو توقف عن النشاط.

إن الموت فى المفهوم الدينى هو الحق، والدنيا هى الباطل.. وإذا كان هناك عذر لغير المؤمنين فى أن يجفلوا من الحق، أى الموت، فما هو عذر المؤمنين !

لقد أحسست اليوم، أن الموت حق تمنحه الحياة للأحياء ! إن الموت كما قلت يحفظ الحياة، وينمىها، ويطورها، وذلك بتجديد الأحياء فهو يميت ناساً، ويحيى غيرهم، ولو توقفت حركة الموت والحياة بين الناس، فإن الإنسانية تصاب بالجمود، وليست رسالة الموت التى يؤديها للحى بأقل شأنًا من رسالته التى يؤديها للحياة فهو الباب الوحيد المفتوح أمامنا عندما يغلق المرض، أو الشيخوخة، أو سوء الحظ. . جميع الأبواب فى وجوهنا !

وتناولت الأدوية التى وصفها لى الطبيب. الحبوب والسوائل والحقن وسأظل أتناولها لا خوفًا من الموت، ولكن

خوفًا من الانهيار تحت وطأة المرض. فلم يعد يعنيني أن أحيأ،
ولم يعد يهمني أن أموت، وإنما الذى يعنيني ويهمنى هو أن
أحيأ وأنا فى صحوة الفكر والمشاعر، والجسد.. وأن أموت
ورأسى ملىء بالأفكار والظنون وقلبى نابض بالإيمان والحسب
وجسدى يتنفض ويتحرك، ويمشى على قلمي!!



الهاربون من القضاء.. إلى القدر!

هل تستطيع أن تهرب من الموت؟ هل تستطيع أن تطيل
عمرك يوماً واحداً؟

المؤمنون بالله يقولون: لا.. والعلماء يقولون نعم.. ولقد
بذلوا جهوداً مذهلة، ليعيدوا الحياة إلى الموتى. فما أكثر
البحوث والتجارب التي انتهت إلى خلق النبض في قلب لم
يعد ينبض، أو استخدام كلية صناعية بدلاً من الكلية
الطبيعية التي فقدت وظيفتها، أو استئصال السرطان من
الدم.. وقد اتجهوا إلى اختراع آلات تنتج قطع غيار من
البلاستيك للقلب، والكبد، والمخ، والشرابين، وتوقعوا أن
يجيء الوقت الذي يصبح فيه الإنسان مثل «الأتومبيل».. إذا
حدثت له إصابة لا يلجأ إلى طبيب ولكن إلى ميكانيكي..
ولا يدخل مستشفى ولكن يدخل المصنع المعد لإصلاح وتغيير
أعضاء الجسد!

وهكذا، يمكن إنشاء محطات للناس، مثل محطات

البززين. لو أحس أحد أن أنفاسه تلفظ آخر رمق اتجه إلى المحطة وأخذ حاجته من الأنفاس الصناعية بواسطة الخرطوم! ولكن لماذا اتجه العلماء هذا الاتجاه؟..

لماذا يحرصون على إطالة عمر الإنسان؟ هل هناك أزمة موت يجب أن نجد لها حلاً؟ إن الأزمة التي يعانيها العالم هي أيضاً تكاثف السكان، أى زيادة عدد الأحياء، وليست زيادة عدد الموتى!

والحرص على بقاء البشرية لا يكون بإطالة أعمار الناس، ولكن يكون بإطالة عمر الإنسانية، وتجديدها، وتطويرها، ودفعها إلى حياة أفضل. ولو ظل الأحياء كما هم، لا يموتون فلن يجدوا المكان الذى يسمح لهم بأن يعيشوا وقوفاً على أقدامهم. للزيادة المطردة فى عدد المواليد كل يوم!

ولو امتنعنا عن استقبال الأحياء الجدد، وأغلقتنا باب التناسل، واكتفينا بأن نظل الحياة لنا وحدنا، فأى حياة هذه التى نحرص عليها. إنها لن تكون إلا جثة..

إن من يتجهون إلى إطالة عمر الإنسان لهم حوافز علمية، ولا شك. يريدون أن يكشفوا مجهولاً، أو يحققوا

معجزة، ولكن لهم حوافز أخرى غريزية، وهى التشبث بالحياة.

إن حبهـم لأنفسهـم هو الذى دفعهـم إلى أن يبحثوا ويجربوا عن طريقة تتيح لهم ألا يموتوا.. وإنهم برغم علمهـم، مثل الفنانين، يعيشون فى الرؤى والأحلام. ولكن بطريقة علمية!

إن الموت هو الحق الوحيد الذى نكرهه، فإذا دهـمنا مرض عضال، أو انتابتنا كارثة خائفة، أحببنا هذا الحق، وطالبنا به!

كان لى صديق حبيب أصابته أمراض وآلام، ولم يترك الأطباء العالميون وسيلة لإنقاذه. وعاد إلينا بعد ما تردد على جميع المصحات فى أوربا، وأمريكا وروسيا، ورأيناه وهو يعانى الضنى بصبر، وكبرياء.

وكان دمه الذى حبسه فى عينيه، ينهمر من عيوننا.. وأناته التى أخفاها فى ضلوعه تصرخ من أفواهنا.. وجاءه طبيبه، وأعطاه حقنة فى الوريد وأخرى فى العضل، وقرب منه أسطوانة الأوكسيجين ليتنفس بها وفتح عينيه وقال للطبيب:

- إن الله يدعونى فلماذا تقفون عقبة فى طريقى إليه!

ومنذ أيام، قرأت في الصحف أن أكبر طبيب أمريكي متخصص في مرض السرطان جمع الأطباء والعلماء، وشرح لهم النظريات التي وصل إليها العلم لإطالة أعمار المرضى بهذا الداء، وأثبت بالأرقام والإحصائيات أنه قد استطاع أن ينقذ حياة مريض أو أكثر، ويرجى وفاته سنة أو ستين، ولكنه تبين بالتجربة الطويلة، أنه لم يؤد خدمة لمن أطال أعمارهم.. فقد ماتوا بعد ذلك، وكل ما جنوه أن عمرهم في العذاب طال!

قال: عبثاً نحاول منع المصابين بالداء العضال من أن يلبوا دعوة الله إليهم.. فلنفسح لهم الطريق، حتى لا نزيد من عذابهم، ونتحدى إرادة الله!

ثم أعلن أن الرحمة بالمريض الميتوس من شفائه تحتم علينا أن نمتنع عن علاجه!

وأحسست في كلام الطبيب الأمريكي أن إنسانيته المؤمنة بالقوة الإلهية انتصرت على علمه الذي جعله يحاول كل هذه السنين إنقاذ الناس من النهاية المحتومة.. فكان يهرب بهم من قضاء الله، إلى قدر الله!

شعرت في كلامه بنبرة الندم على أنه حرم ناساً من
حقهم الطبيعي وهو أن يموتوا دون أن يتعذبوا..

إن الإيمان بالله، وقدرته، هي النبض الطبيعي للحياة.
ومع ذلك فما أكثر ما يعترينا الغرور فنظن أن في
استطاعتنا أن نخلق للحياة نبضاً صناعياً، ثم ننتهي بعلمنا
وتأملاتنا، وظنوننا، وفلسفتنا إلى منبع البدء والنهاية.. الله..

ومنذ بدأ العلم يخترق الفضاء، ويبحث عن الكواكب
الأخرى، اجتاحت الناس موجة من الخوف على إيمانهم..
وتساءلوا: وماذا يبقى لله بعد أن يخترق الإنسان الفضاء،
ويصل إلى القمر، والمريخ؟ سيبقى الله!

كان أكثر العلماء في عصرنا هذا، عصر الذرة لا يؤمنون
بالله لأنهم يؤمنون بالعلم.. وأخيراً أعلن أكبر علماء الذرة في
روسيا أنه قد اتضح من التجارب التي جرت في اختراق
الفضاء أن هناك قوة خفية تحرك الكون كما تشاء!

وأنا لا يعني أن يطول عمري أو يقصر. وإنما يعني أن
أمارس حياتي ولو كانت أياماً معدودات. بعقلي وقلبي.. فما

جدوى أن أعيش أرذل العمر، وعقلي جامد، وقلبي
لا ينفع! لا
إن يوماً واحداً أفكر فيه، وأحب، وأعمل.. خير من
مائة عام أعيشها بلا فكر، بلا حب، بلا عمل!



أيتها الذكريات... ماذا تريد مني؟

عشت اليوم في جو العيد، كل ما حولى في البيت،
والمكتب، والشارع، يستعد لاستقبال عيد الأضحى غداً.

المحررون والموظفون والعمال يتجمعون في مكتب الصراف
ليتسلموا المكافآت وجزءاً من المرتبات، بينهم من تعلقوا
بالتبسامة، وبنهم من لا يتسسم، ربما لأنه يدخر ابتسامته ليوم
العيد! ربما لأنه لا يعرف كيف يواجه العيد بهذا القدر الذى
تسلمه من المكافأة والمرتب!

سكان البيت حبسوا الخراف في المطابخ وغرف الغسيل،
والردهات، وربطوا رقبة كل خروف بحبل يتيح له أن يتحرك
دون أن يمشى، ويتيح له أيضاً أن يعبر عن ألمه بهذا الصوت
(ماء.. ماء) وإذا صالح خروف في أية شقة بهذه الصيحة:
(ماء) صاحت معه بقية الخرفان، في كل الشقق، وتحولت
الصيحات.. إلى احتجاج جماعى توجهه الحملان الوديعه إلى
من أسروها، وأعدوها، لكى تكون ضحية العيد!

وقد أخرج السكان التراب من شققهم بالمنافض والمكانس
وخرطوم المياه، وألقوا بالآثربة فوق عتبات السلام الخلفية،
وأخذ البوابون ينقلون هذه الآثربة إلى صناديق القمامة، تمهيداً
لتسليمها إلى عمال النظافة..

وفي الشارع حركة غير عادية، صبية الكواثين، يروحون
ويجيئون بسرعة ونشاط، عربات التاكسي والعربات الخاصة،
تقف عند أبواب البيوت والعمارات وتنزل منها لفافات تحمل
أسماء أشهر محال الحلوى، والأقمشة، والخياطين. والعجلات
التي تطوف البيوت باللبن والحبز كل يوم، طافت اليوم أكثر
من مرة لتزود السكان بمحاجاتهم في إجازة العيد!

ولقد اعتدت هذا الجو في الأعياد الماضية، وكنت أطيعه.
ولكن في هذه السنة ضقت به. وأحسست رغبة شديدة في
الهرب من مواجهة العيد هنا في بيتي... ولكن إلى أين
أذهب؟ إلى الإسكندرية ففيها البحر الواسع الكبير الذى
تستطيع مشاعرى الجريحة أن تجد فيه ما يضمّد جراحها!

ولكن الدم لا يسيل من مشاعرى وحدها، إنه يسيل من
ذكرياتي أيضاً.. ولا أعرف إلى متى تبقى هذه الذكريات،

ولا أعرف ماذا تريده مني ؟

ما أكثر ما عرفته ونسيته . إلا ذكرياتي ، فأنا لا أستطيع أن أنساها ، وهي لا تريد أن تنساني .. ويا لها من ذكريات يختلط فيها الرضا والغضب ، والذكاء والغباوة ، والاطمئنان والقلق ، والاستقرار والضياع .

بعض الذين أذكرهم تركوا الحياة ، ولكنهم لم يخرجوا من حياتي ، وبعض الذين أذكرهم دخلوا حياتي ، وخرجوا منها وهم أحياء ، ومازلت أبحث عنهم بخيالي ، بأوهامي ، بنبض قلبي ، بخلجات نفسي .. أراهم وهم يهربون من عاطفتي في طائرة أو صاروخ ، فألهث ، وراءهم بوفائي وحبي ! ويا له من إنسان ساذج هذا الذي يحاول أن يلحق الطائرة أو الصاروخ بالوفاء والحب ! ليته يعلم أن الوفاء ساق مشلولة ، والحب جناح كسير !

صخب وهدوء

وبغثة وفي وقت واحد ، أدت الراديو والتليفزيون ، ومسجل الأشرطة والفونوجراف . وتحدثت في التليفون .. أريد

أن أثير ضجة، وصخبًا، وزعيقًا لعلنى أنسى هواجسى
وتأملاتى، أو أفقد ذاكرتى !

ولكنى لم أفد من ذلك إلا الشعور بوجع رأسى، وارتدبت
ملابسى واتجهت إلى المقابر، كما اعتدت فى كل عيد. وهناك
وجدت الهدوء المهيّب الرهيب ووقفت عند قبر لا أعرفه،
وتمثلت فيه كل أهلى وأحبائى الذين ذهبوا إلى غير رجعة،
رأيتهم بملابسهم، بسحناتهم بملايحهم بمزاياهم النفسية
والعقلية. كدت أسمع أصواتهم من شدة شعورى بهم.

وبدأت أتحدث إليهم.. وفجأة أدركت أن فى لا يتكلم.
وأن عيى هى التى تتكلم.. فلم تنطلق منى كلمة، ولكن
انطلقت أنات ودموع !

فيم أنينى وبكائى؟ هل يرد الأنين غائبًا ليس لغيبته
إياب؟ هل يعيد البكاء يومًا من سنة، أو دقيقة من ساعة؟
أم ترانى لا أئن شوقًا إليهم، ولا تدمع عينائى حزنًا
عليهم. وإنما أنا أتأوه من ألمى، وأبكى على نفسى؟

وما الذى يؤلمنى؟ إن أقسى ما أعانيه هو المرض، وأين
الإنسان الذى لا يعانى علة؟ وعلام نخشى المرض مادامنا

نستطيع مقاومته بالدواء؟ هل نخاف أن ينتهى بنا إلى الموت؟
وهل المرضى وحدهم هم الذين يموتون؟

ما الذى يؤلمنى، وأنا أحيا كما أريد. أعمل، وأقرأ،
وأكتب، وأفكر، وأعيش عصرى بكل ما فيه من حُضارة،
وعلم، وفن، وجمال؟

إن الحياة فى نطاقها المادى المحسوس لا تؤلم الأحياء. وإنما
تؤلمنا حياتنا عندما يجتاحها تيار الانفعال بالحُب، والخير
والوفاء، والذكريات؟ إن انفعالاتى هى سر المأساة

وإذا كانت ذكرياتنا عن أحبائنا الموق سوطاً يلسع ظهورنا،
فإن ذكرياتنا عن أحبائنا من الأحياء خنجر يشق قلوبنا، وحبل
يشنق رقابنا.

إننى أكتب هذه الكلمات وقد نفضت قلمي من صحراء
الإمام، وسرت فى الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية.. إن
الصحراء تغربنى بالتأمل، سواء كانت طريقاً أو مقبرة.. وبعد
ساعتين سأكون فى الإسكندرية. حيث البحر العميق
العملاق.. وكم ألهمنى هذا البحر أفكاراً، وأشعاراً،

وتعبيرات صادقة.. وكم تحلى عني فلم يلهمنى شيئاً
إلا الوحشة والكآبة!

ليتني أستطيع أن أكسب صداقته لحظة واحدة.. لحظة
أغرق فيها ذكريات عمن يعيشون معي وليسوا معي! الموق
الذين سأعود إليهم يوماً، والأحياء الذين لن أعود إليهم أبداً.



وهؤلاء الأطباء.. هل ينطبق القانون عليهم؟

أعتقد أنني عشت حياتي بطريقة أرهقتني حتى أصبحت أحس أني لا أسير مع عمري ولكنني أحمله كصخرة فوق رأسي!

ولست أسفًا على ذلك، فإن هذه الطريقة المرهقة علمتني الإيمان بالإنسانية، واستطعت أن أنفعل بكل ما يشعر به الناس من يأس وقلق وأمل واستقرار. وأصبح الإنسان مشكلتي التي أعانيها ويتصعب ذهني عرقًا وأنا أفكر فيها. وإذا عجزت لحظة عن مشاركة الإنسان في هدوئه أو غضبه، فإني لا أعجز أبدًا عن أن أغني له، أو أبكي عليه!

وهذه العاطفة الإنسانية كانت فينا كالغرائز، ولكن ما أكثر الذين لا يحاولون تنميتها ويكتفون من الشعور الإنساني كله بأن يشعروا بأنفسهم ليس إلا... وهذه أنانية بشعة، والأنانية هي الأخرى غريزة، ولكنها من الغرائز التي يتحتم على البشرية في مراحل تطورها وسموها، أن تهذبها، أو تقضي

عليها. مثل بقية الغرائز الشريرة التي تعيش في صراع دائم مع غرائز الخير.

وعندما كانت الغلبة للشر كان الإنسان أشبه بحيوان مفترس، يكره ولا يحب، ينتقم ولا يعفو. يستخدم مع أقرب الناس إليه أساليب الغدر. والسطو، لا يؤمن بشيء إلا ذاته.

يريد أن يملك كل شيء بالاغتصاب والجور ولا يريد لسواه إلا العجز والضعف والجوع. كانت المبادئ والقيم مجهولة. أو مهددة. كان الإنسان يعيش وحده ولا يبغى للآخرين أن يعيشوا معه.

ولما ارتقت الإنسانية، عاطفياً وذهنياً كشفت حقيقتها. ورأت أن الإنسان لا يعيش إلا بغيره، ولغيره، وأن الحياة تتطلب من الأحياء أن يواجهوها بالتعاطف، والشعور بمسئولية الإنسان عن الناس جميعاً، وأن يحل الخير، والحب، محل الشر والكرهية.

وبدأ المفكرون والحكماء منذ آلاف السنين يتجهون بالإنسانية إلى هذه المعاني، وكانت الإنسانية تهتدى فترة، وتضل الاتجاه فترات وجاءت الأديان السماوية، فركزت

رسالاتها المقدسة على رفع الإنسان من هاوية الشر. إلى قمة الخير.

وعانى العالم أزمات فكرية زلزلت العقائد، وارتفعت أصوات ملحدة وأخرى مؤمنة، ولكن هذه الأصوات برغم اضطرابها بين الشك واليقين كانت تنادى بأن الإنسان للإنسان.

وبين هذه التيارات ظهرت مذاهب إنسانية، تدعو إلى المساواة، وتكافؤ الفرص، وحرية الرأي، والعقيدة، والتكافل الاجتماعى، ولكل مذهب أسلوبه، وطريقته، ومنهجه، غير أن هدفها هو الارتقاء بالإنسانية وبالإنسان.

وعندما سارت بلادنا فى طريق الاشتراكية، كان هذا نقطة البداية لممارستنا لإنسانيتنا، وحياتنا. وقد شنت علينا الرجعية حرباً شعواء، وتخفت وراء الدين، وخصصت فى إذاعاتها برامج يتحدث فيها رجال لهم صفات دينية تقليدية. وأخذ هؤلاء الرجال يؤكدون فى حماسة مفتعلة، وورع زائف أن اشتراكيّتنا تتعارض مع العقائد والأديان!

ولم تلق هذه الدعايات استجابة من أحد، فالقوانين



وقد رأيت بين عشرات المرحومين سيدة ليس لها وقفة ولا خطوة [ص ٧٠]

الاشتراكية تنطوي على العدالة، والإنسانية، والمساواة. وديننا عدل، وإنسانية، ومساواة.

إننا باشتراكيتنا لم نسبق ديننا، بل رجعنا إليه، فديننا ينص على أن الناس كأسنان المشط، وأنهم كالبنيان المرصوص، وأنه لأفضل لعربى على أعجمى إلا بتقوى الله. والتقوى هي العمل الصالح وهو يخاطب الفرد فيقول له: أحب لأخيك ما تحب لنفسك.

وهذه المعاني هي جوهر اشتراكتنا، وقد أخرجناها إلى حيز التطبيق بقواعد وقوانين.



إن هذه السطور لا تتلاءم مع عنوان الموضوع، أخشى أن يظن القارئ أنها مقدمة لما أريد أن أقوله. فأنا لا أستسيغ المقدمات المسهبة وإنما هي خواطر ألحت على ذهني، منذ شهر أو أكثر، عندما قرأت في الصحف نبأ عن مشروع قانون قضى بمعاينة كل من يقصر في المبادرة بإسعاف مريض، فإذا رت في الشارع ووجدت شخصاً يشكو من ألم، أو ملق على الأرض إعياء، فلأنك لا تستطيع أن تتركه من غير أن تقف.

إلى جانبه وتعمل على إنقاذه، وإلا تعرضت للعقوبة القانونية. فأنت مسئول عن كل فرد، وكل فرد مسئول عنك، وهذا التشريع يرمي عن إنسانية رفيعة، ولم يكن موضع تفكير المشرعين قبل عهد اشتراكتنا الإنسانية، وهو نابع من روح الدين الذي ينادي بأن «كلكم راع، وكل راع مسئول عن رعيته».

والأطباء؟

ولست أعرف تمامًا مدى تطبيق هذا القانون، هل سيختصر على من يشهد مريضاً ولا يبذل جهداً في إسعافه، أو أن نطاقه سيتسع حتى يشمل بعض الأطباء الذين يلجأ إليهم مريض في بيوتهم بواسطة التليفون فيجد الساعة بعيدة عن التليفون، ويظل رقم التليفون مشغولاً إلى أن يموت المريض!

وهناك أطباء يخلعون «فيشة» التليفون، ويرن تليفونهم، في أذن المريض دون أن يرد عليه أحد.

هل يطبق القانون على هؤلاء الأطباء؟ إن العدالة تقتضي ذلك. فكم من مريض علق أمله على الاتصال بطبيبه في

التليفون ولم يستطع لأن الطبيب خلع « الفيشة » أو رفع الساعة !

إننى أومن بحق الطبيب فى أن يستريح من عناء عمله، ولكن طبيعة مهنته تقتضى منه أن يهب راحته وروحه معاً لمرضاه.

وكانت تقاليد أطبائنا فى الماضى إلى عهد قريب شيئاً آخر غير ما نسمع به هذه الأيام عن بعض الأطباء. كان الطبيب ينام والتليفون إلى جواره، فإذا رن الجرس هب من نومه، ورد على المتكلم، واستمع إلى شكواه فإذا وجد حالته خطيرة، ارتدى ملابسه وزاره فى بيته، وإذا وجد أنها حالة بسيطة نصحه بتناول بعض الأدوية.

وقد روى لى الأستاذ الدكتور عبد الله الكاتب، أن عميد الجراحين المغفور له على إبراهيم امتنع قبل وفاته بسنتين عن إجراء عمليات جراحية ومع ذلك حرص على أن يبقى التليفون بالقرب من سريره، حتى إذا طلبه مريض، بادر واتصل بأحد تلامذته مثل الدكتور مورو أو الدكتور الكاتب وأيقظه من نومه وأعطاه عنوان المريض وكلفه أن يتوجه إليه ويفحص حالته،

ويتولى الإشراف على علاجه !
إننى بهذه الكلمات لا أحاول أن أتهجم على فريق من
الأطباء، ولكنى أحاول فقط أن أتهجم على تليفوناتهم !
لعنة الله على التليفونات ..



الحياة لقاء.. والموت فراق!

الساعة الآن الرابعة صباحًا.. منذ عشرين دقيقة غادرت المستشفى الكبير، وقد تركت فيه آمالا تتحطم، وصلوات تشق طريقها إلى السماء فلا تكاد تصل إليها حتى تحترق، ودموعًا تنبع من قلوب مزقتها الحزن والألم، وقد تركت هناك آمالي وصلوات ودموعي، وقلبي الممزق.. تركتها تشد أزر الزوجة الشابة، والأم المعجوز، والإخوة والأخوات.. والطفلين الصغيرين، والشباب الراقد على سرير يعاني نزيف المخ.. والأطباء حيارى بين علمهم وتجاربهم، وبين ما يروونه من تصرفات القدر! الأبحاث تؤكد أن لا أمل.. ويحيى القدر فيمحو هذا التأكيد تارة، ويثبت تارة، وأعصابنا مشدودة بين المحو والإثبات.. نظراتنا زائغة، قلوبنا مرتجفة، وفي خواطرنا نزيف لا ينقطع من الأمل الخادع، واليأس القاتل.. ومن نحن؟ إن فينا الأهل، والزملاء والأطباء والأصدقاء ومن ليسوا بأصدقاء. فينا من عرف المريض فأحبه، وفينا من عرفه

واختلف معه، ولكنه لم يكرهه قط، فإن إسماعيل الحبروك من الأشخاص القلائل الذين يتحدثونك أن تكرههم، مهما يشتد خلافك معهم، صداقته بيضاء، وخصومته بيضاء، وطيبة قلبه تجعل من الغفران ستارًا بينه وبين كل من يتصور أنهم أساءوا إليه، أو يتصورون أنه أساء إليهم..

أهكذا، وفي أقل من ومضة البرق، تنتهى حياتنا، ويتسلل الموت إلينا، فلا يرده عنا ما في رءوسنا من أفكار، وما في صدورنا من عواطف، لا ترده الأذرع الملتفة حولنا، أذرع الأمهات والزوجات والآباء والإخوة والأحباب وفلذات الأكباد.. لا يرده أن كثيرًا في الحياة وكثيرًا من الأحياء في حاجة إلى أن نعيش لهم!

ولكن لماذا نفزع من الموت وهو حقيقة لا تقبل الجدل؟.. لماذا يعصر قلوبنا الحزن على من يموتون؟.. هل حزننا وفزعنا هرب من الحقيقة؟.. كلا.. فالموت نهاية طبيعية لكل حي، إنه وسيلة وغاية.. وسيلة لتجديد الحياة بأحياء آخرين، وغاية كل عمر ولو تنهى إلى مئات السنين. إن فزعنا ليس من الموت، ولكن من الفراق.. فراق من

نحبهم من الأعزاء علينا.. فراق من بنوا حياتنا بالعلم،
والمبادئ، والقيم، وجعلوها تنبض بالكلمة والنغمة، وجعلوها
بلوحة أو تمثال.

إننى لا أعرف ماذا كتبت.. فأنا لا أكتب الآن، ولكنى
أسجل أنفاسى اللاهثة فى المستشفى.. أسجل خواطرى فى
المستشفى.. أسجل تأثرى بالأساليب التى عبر فيها الناس عن
اهتمامهم بالمريض، ولهفتهم عليه. فيهم من كان يجهش بالبكاء
كطفل، ومن كان يمضغ حزنه، ومن كان الحزن يمضغه..
ومن كان يرسل نظرات شريدة فى غير اتجاه، وفى كل اتجاه..
ومن كان يردد اسم الله القادر على كل شيء ويسأله فى
ضراعة أن يستعمل قدرته سبحانه.

وكان الألم يرتسم على قسماى الوجوه.. وفى السوفات
المتريحة، وفى الخطوات الضائعة بين غرفة المريض وغرفة
الاستراحة..

وقد رأيت بين عشرات الحزينين، سيدة ليس لها وقفة،
ولا خطوة، ولا ملامح.. كانت عيناها، وأنفها، وفمها، وكل
قسماى وجهها دموعاً وتشنجات.. إنها شريكة حياته.. إنها

أم أبنائه.. إنها حبيبة العمر الذى يحاول الموت أن ينزفه !
ورأيت كل الأطباء وقد تجاوزوا جميعاً مرحلة البشر..
بينهم من تخلوا عن آدميتهم وصاروا ملائكة، وبينهم من تركوا
آدميتهم وصاروا شياطين ! ما هذا الذى أسمعه، بل ما هذا
الذى أشهده ؟.. كيف طاع هذا الطبيب الكبير ضميره
عندما رفع سماعة التليفون فى داره، حتى لا تقلقه أنباء
المريض الذى يكافح الموت وحده.. يكافحه وهو فى
غيبوبة ؟ !

كيف طاع هذا الطبيب الكبير الآخر ضميره وهو ينكر
نفسه ويرد على سائله بصوت غير صوته قائلاً: الدكتور
موش موجود ؟ !

كيف طاع هذا الطبيب الكبير الثالث ضميره وهو يحتاج
بأعلى صوته على إزعاجه واستدعائه إلى المستشفى فى حالة
ميثوس منها ؟ !

يا أطباءنا الكبار، بل يا بعض أطبائنا الكبار.. إننا
لا نطلب منكم أن تكونوا ملائكة، ولكن نطلب منكم -
فقط أن تكونوا من البشر !

إلى أين... أيها الإنسان؟!

بدايتنا أشبه بنهايتنا..

هما طرفان لشيء واحد هو الحياة..

ما لهذا الشهر - ديسمبر - يزحم رأسى بالخواطر
والتأملات أكثر من أى شهر آخر من شهور السنة؟ ربما لأنه
الشهر الذى بدأ فيه عمري، فأنا من مواليد ديسمبر.. ربما
لأنه الشهر الذى تنتهى فيه أعمار الأعوام!

وبداية العمر ونهايته كلتاهما تشير الشوق إلى المعرفة..
فنحن نولد وفي نفوسنا شوق إلى أن نعرف الهضبة التى نحاول
الصعود إليها.. وعندما نصل إلى الهضبة نتحرق شوقاً إلى أن
نعرف لماذا وصلنا إلى الهضبة، وماذا بعد الهضبة؟

بدايتنا أشبه بنهايتنا.. فهما طرفان لشيء واحد هو
الحياة..

وفي ذهني خط بياني عن دور الإنسان في ممارسة حياته..

وفي هذا الخط البياني انخفاضات وارتفاعات تثير الحيرة !
 فالإنسان في رأى العلم ليس أول المخلوقات، ولكنه تطور
 لها.. وهو في رأى الدين أعظم المخلوقات.. وقد تجلست
 عظمته في سيطرته على الطبيعة وتسخير إمكانياتها في خدمة
 راحته الجسدية.. وتهينة حضارة فكرية تتمثل في العلوم
 والفنون..

وقد حقق الإنسان منذ مستهل القرن العشرين حتى الآن
 من الخوارق العلمية، ما غير وجه التاريخ.
 لقد وصل الإنسان إلى كوكب القمر أو كاد.. وهو اليوم
 في طريقه إلى كواكب أخرى كالزهرة والمريخ.. ولقد امتلك
 الجو.. أصبح الجو لنا، نتحكم في طبقاته بالطائرات،
 والصواريخ، ونتحكم في تقلباته بين الحر والبرد والصحو
 والضباب.. ولكننا مع قدرتنا على إذلال طبيعة الحياة مازلنا
 خاضعين للذل الجهل بجوهر الحياة!! فلم نعرف بكل ما فينا
 من قوة عقلية، وتقدم علمي، ما هذه الحياة، وهل قيمتها في
 ذاتها، أو أن قيمتها في أهدافها؟ وما هي هذه الأهداف؟
 إن كوكبنا الأرضي يدور.. ولكن لماذا دار؟ وإلى متى
 يدور؟

إن العلماء الذين نجحوا في الوصول إلى سر القمر،
أخفقوا في أن يصلوا إلى سر عقولهم وأرواحهم!

والناس البسطاء تذهلهم المخترعات، وتكاد تنزلز منهم
العقائد.. سألني واحد منهم: لو أن الذي اخترع الراديو، أو
الصاروخ العابر القارات ادعى النبوة.. ألم يكن الناس
يصدقونه، ويدخلون دينه أفواجًا؟.. أليست هذه المخترعات
العلمية أعجب من المعجزات؟

وقلت للإنسان البسيط: إن الفرق بين العلم والمعجزة،
هو أن ما يأتي به العلم مرة يمكن أن يتكرر مرات، بصورة
أروع وأحسن.. أما المعجزة فهي لا تتكرر، ولكن تحدث مرة
واحدة..

ومعجزات الأنبياء خارقة بذاتها، وخارقة بذات النبي
نفسه، فهو لا يجيء بالمعجزة ويدخل مصنع المعجزات ليتكرر
معجزة أقوى، وإنما هو يندفع مع المعجزة يدافع عنها،
ويناضل، ويتعذب، ويحمل عذاب الانصهار والأعداء على
السواء.. إنه لا يعمل لنفسه، أو لقومه، ولكن يعمل
لل البشرية.. للجنس البشري.

والنبي هو الذى هدى العقل إلى أن يصنع كل هذه
العجائب العلمية ولا أحد يدرى إلى أين سينتهى الإنسان فى
طريق العلم والمعرفة..

هذا الإنسان الذى كان واحدًا من المخلوقات المائية،
فتطور وصار أنقى المخلوقات.. هذا الإنسان أصبح يملك أسرار
الطبيعة ويتحكم فيها، لكنه لن يستطيع أن يملك سر روحه..
أو أن يتحكم فى مصيره!



إلى أين نمضى

« إلى أين نمضى - أيها الدهر - بعدما نصير هباء...
لا ضجيج، ولا صمت؟! إلى أين يمضى شينا وشبابنا؟ إلى
أين يمضى الومض والنبض، والصوت؟ وفي أى قبر منك
خبأت من مضوا وأبعدت مثواهم.. فراحوا ولم يأتوا؟! »

ما هذه الدنيا؟ ولن هى؟
إنها ليست للموق... فقد ماتوا. وليست للأحياء..
فلأنهم يموتون!

لماذا إذن نتشبث بها، ونتصارع فيها، فيم فرحتنا بالأمل،
والراحة والطمأنينة، فيم فزعنا من اليأس، والتعب، والقلق؟
ما خطر المرض ما قيمة الصحة.. ما العمر كله طال أو..
قصر؟

البداية واحدة.. والنهاية كالبداية مثلما جئنا نذهب.. ولا
ندرى لماذا جئنا ولا لماذا نذهب..!

أهبت هذه الخواطر ذهني ومشاعري كما لو كانت نيراناً أو
 سيّاطاً.. وكلما حاولت أن أنفادها تعقبني بعنف والحاح
 فأخضع لها... وهل نستطيع شيئاً إلا الخضوع؟ أى سلاح
 معنا نقاوم به هذه الحقائق؟ ليس معنا إلا الوهم والخداع.
 نموت كل يوم في أنفسنا وفي غيرنا... ونحن مع ذلك
 نعمل، ونكد، ونكبح كأننا نعيش أبداً... نحارب اليأس
 وهو حقيقة، ونتعلق بالأمل وهو خيال...!

إذا قتل أحدنا الآخر فالقاتل سفاح والقتيل شهيد...
 وإذا قتلنا عزرائيل فهو قضاء وقدر ونحن موق...
 نقاوم المرض لا لنعيش، ولكن لئلا نموت أصحاء.
 من أين وإلى أين..؟

سؤال دارت به رؤوس الفلاسفة والمفكرين من قديم
 الأزل.. وقد ماتوا ولم يجدوا جواباً عن السؤال، إلا في تكرار
 السؤال...!

الذين لم يسألوا أشقياء، والذين يسألون أشقياء...
 من نحن؟ ماذا يراد بنا...؟ وما هو منطق الحياة مع
 الأحياء؟

هل هي للأذكاء...؟
كم من ذكى قضى وهو شعلة تتوهج؟
هل هي للأغبياء...؟
كم من غبي مات ولا نعلم لماذا عاش ولا لماذا مات...؟
هل هي للأصحاء...؟
كم من صحيح ذهب وهو فى ريعان القوة
والشباب...!
هل هي للمرضى...؟
كم من مريض دخل الحياة مريضاً وخرج منها مريضاً..
وربما عاش أكثر مما عاش الأصحاء...؟
هل الحياة حق...؟ وكيف نمارس هذا الحق...؟
هل الحياة باطل ومحال؟ وما جدوانا من الباطل
والمحال...؟
ما هو القانون الذى ينظم علاقتنا بانتهاء الأجل...؟
كيف نعلل بقاءنا أمداً طويلاً أو أمداً قصيراً...؟
ما أكثر الذين فقدناهم فى عمر الورد... ونضارة الورد..
وما أكثر الذين عاشوا ذابليين... ولم يموتوا...!

هل الأعمار صفائح بنزين.. تعطى الأقدار كلا منا
صفحة، بعضنا يستنفدها في ٤٠ كيلو وبعضنا يستنفدها في
٤٠٠ كيلو؟

هل الأعمار جواز مرور في طريق الحياة؟.. بعضنا يحمل
جوازًا بالمرور حتى الكيلو عشرة، وبعضنا يحمل جوازًا بالمرور
حتى الكيلو ٩٠، ولا نهاية لهذا الطريق!

وهؤلاء الذين ماتوا.. أين ذهبوا؟ أين ذهبت
أجسادهم وأرواحهم..؟ ولماذا التقينا بهم وفازقونا؟ لماذا
أحببناهم؟ لماذا كرهناهم؟ هل يعودون فينا؟ وهل نعود في
غيرنا..؟

أهذه أوهام محزون؟

أم هذا هو المنطق والحقيقة..؟

أهذه دموع أم هذه أفكار؟

لا أدري... كل ما أدريه أن استقبلت بدموعي هذه،
أو أفكارى هذه.. صديق وهو عائد من الاسكندرية.

استقبلت صداقة عشرين عامًا. كانت كلها صفاء، ووفاء
ورجولة.

استقبلت- جثماناً.. جثمان الصديق وجثمان الصداقة.. !
وسأل الأصدقاء الباكون : كيف مات حسن الأعور.. ؟
كلهم يريد أن يعرف السبب ! هل كان مريضاً ؟ هل
أصيب في حادث.. ؟
لماذا تسألون.. ؟
لقد مات حسن الأعور كما مات من سبقونا،
وكما سنموت جميعاً.. مات لأنه كان حياً !
إن الأقدار لا تحكم علينا بالموت إلا إنها حكمت علينا
بالحياة.. !



عش بعدنا..

أقف اليوم. مشدود الأعصاب. أحاول أن أبكى
فأرتعش، أريد أن أشهق فتختنق أنفاسي، أتمنى أن أقول
كلمة فإذا الحروف خرساء!

لقد هدنى النبأ وأنا أقرؤه، لم تصدق عيني أن هذا الذى
تنعاه الصحف فى سطور قليلة، هو الدكتور أنور المفتى الذى
عاش لآلاف المرضى، وأنا منهم، وكلنا يدعو الله للطبيب
العالم الإنسان أن يعيش لنا ويعيش بعدنا!

لقد كان أنور المفتى ثروة قومية عربية، وكان ثروة إنسانية
عالمية، فقد تفوق فى بحوثه الطبية والعلمية تفوقاً استرعى
اهتمام المجلات الدولية به، وكان آخر ما قدمه للعالم أبحاثه عن
مرض السكر.

وقبل أن يموت بأعوام كان يزور مصر طبيب عالمي مختص
فى أمراض القلب، وألقى محاضرة عن هذا المرض الذى زادت

نسبة مرضاه بصورة مذهلة. وكان الدكتور أنور المفتي بين الذين استمعوا إلى المحاضرة، وعلق عليها بآراء وإحصاءات اعترف الطبيب العالمى بأنه لم يتمكن من الاطلاع عليها، وإن كان قد سمع بها.

وزارنى الدكتور أنور فى المستشفى، وكان يشرف على علاجى هو وزميله الدكتور منصور فايز، وقلت له : إننى عرفت ما دار بينك وبين الطبيب العالمى اليوم، فضحك وقال لى فى تواضع : هذا شئ بسيط، واكتسى وجهه بخفصر العذارى، وأخذ يحس نبضى ويضع ميزان الحرارة فى فمى، حتى يغير موضوع الحديث، كأنه لا يريد أن يחדش حياؤه بكلمة ثناء عليه!

هذا العالم الكبير، وكان مثلاً فى الجدى، والعمل الدائب. وكان نبيلاً، فى سلوكه كطبيب وكإنسان.

عرفت اسمه منذ عشرين عاماً، ولم يكن ذا شهرة كبيرة ولكن القصة التى رواها لى أحد أصدقائى عنه، قيدتني بحبه وإجلاله، قال صديقى : إن شقيقه المريض بالقلب طلب استدعاء الدكتور أنور المفتي للكشف عليه فى بلدته. وقيل له



واكتفت من البحر بالنظر إلى موجه، والسياح في هوائه [ص ٨٨]

إن كبار الأطباء زاروه ووصفوا له الدواء. فأصر على أن يزوره أنور المفتي أيضاً. واتصلوا بأنور المفتي فاستقل عربته وذهب إلى منيا القمح، وهناك قابله أهل المريض وأخبروه بأنه لفظ أنفاسه الأخيرة. فأصر على أن يراه.. ولما أرادوا أن يقدموا له قيمة الكشف والزيارة رفض وقال: إننى لا أعود الفقيد ولكننى أزوره بناء على وصيته!

ولما عرفت الدكتور أنور المفتي عن قسرب، تجلست لى إنسانيته فى مئات المواقف، وكان هذا العالم الجليل العبقري، مولعاً بالغناء والموسيقى والشعر والأدب. وهى إحدى المقدمات التى شحذت قدرته العلمية الفائقة وجعلت له جاذبية لها سحر الدواء.

إننى لا أعرف ماذا كتبت؟ كل ما أعرفه أنى حاولت أن أبكى، وأشهى، وأزفر. ويسارى اغفر لى حسرى، وألمى، وفرعى فلست أعترض على قضائك، ولكنى أسألك أن تلتطف بنا فيما تقضى... وسلام على أنور المفتي عالماً، وإنساناً. ليته عاش لنا، وعاش بعدنا... ليته!

كيف تعيش حياتك..؟

فى أحيان كثيرة يخيّل لى أنى لا أعيش حياتى، ولكن أموتها.. الأيام تمر بى، فتأخذ من عمرى دون أن تعطينى شيئاً أى شىء.. انفعالا، شعوراً، تجربة!؟

وفى أحيان أخرى يخيّل لى أنى أعيش حياتى بعقلى، وقلبى، وكل خلجات نفسى... أحس أننى أؤدى دوراً فى الحياة ومع الحياة.. دورى فى الحياة هو أن أعمل وأتأمل وأناضل فى سبيل فكرة أو عاطفة.. ودورى مع الحياة هو أن أستوعب ما فيها من خير وشر، وإيمان وشك، واستقامة واعوجاج.. أقاوم النزوة، وأستسلم للجمال! وكم توهمت وأنا أسهر الليل أن الغد لن يصحو إلا إذا أيقظته بأهاتى، أو ضحكاتى، أو دراساتى... وهل لىالى التى أسهرها إلا آهة أو ضحكة، أو دراسة؟

وفى لحظات الشعور بالثقة والصمود أستقبل يومى الجديد كما أستقبل أستاذاً جاء يمنحنى العلم والموعظة.. فأحتفى به،

وأقدم له فهمي، وذاكرتي، وانتباهي!

وكم أنطور الأيام خيلاً، تملأ حظيرة عمري، فأقصى منها المشوه والهزيل، وأنتقي الجياد الأصيلة، فأمتطيها، وأتنقل بها بين اليوم والغد، في قوة، واعتزاز، وخيلاء!

وأنا حريص على أن أؤدي دوري في الحياة. قد يكون هذا الدور فوق المسرح، دور بطل أو دور كومبارس. وقد يكون في مقاعد المتفرجين. في المقاعد الأمامية، أو في أعلى التياترو! وإنى لتتأبى الرغبة في أن يكون دوري أكبر، ولكن لا أرغب ولا أفكر في أن أتثبت بالبقاء على المسرح أو في الصالة بعد إسدال الستار...

ولهذا فأنا لا أهاب الموت لأنه خاتمة الرواية. ولكني أهاب المرض لأنه يعوقني عن تأدية دوري!

والحياة عندي ليست فقط جسراً نعبره إلى حياة أخرى، وإنما هي طريق نقطعه. طريق له بداية نود أن نعرفها، وله نهاية لن نصل إلى مداها... ولا يعنيني أن أقع وأنا سائر في الطريق، وإنما الذي يعنيني أن أسير في الطريق، ولو بضع خطوات!

وما أكثر الذين وقفوا في طريق الحياة.. لم يمشوا، ولم
 يقعدوا.. لم يفتحوا أعينهم على ضوء، ولم يلتفتوا بأذانهم إلى
 نعمة، وهؤلاء اصطلحنا على تسميتهم أتقياء ورعين مأواهم
 الجنة... وما أظن أن لهم هذا المأوى أبداً! فالله الذى خلق
 الدنيا وأودع فيها فنه العظيم لن يفتح جنته لمن تجاهلوا دنياه!
 إن الحياة ليست جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ
 الأعين. وليست جحيماً يشوى جلودنا ويكوينا. وإنما هى ظل
 وشمس.. والإنسان الحى ليس من يحتمى دائماً بالظل، وليس
 من يعيش دائماً فى وهج الشمس، وإنما هو من يمارس الظل
 والشمس معاً؟

فكيف تعيش أنت حياتك؟



عقليات ترتدى «الشورت».. و «المايوه»!

ما من مرة ذهبت إلى الشاطئ إلا تمنيت أن أرتدى البنطلون «الشورت» أو «المايوه» وأتمرغ على الرمال، وأستقبل أشعة الشمس، وأدير لها ظهري، وأقذف كرة، وأجرب خلف بالون، وأغوض في قاع البحر، وأطفو فوق سطح الماء، وأرتطم بالموج وأمتطي القارب العائم!

ولكن ما من مرة أدركت ما تمنيت. صحيح أن لبست المايوه، وسبحت في البحر، ولكن ذلك كان منذ ربع قرن، ثم حدث أن غرق ابن عمي أمام عيني في شاطئ سيدى بشر، فظللت زهاء عشر سنوات أجفل من رؤية البحر، كنت أرى الماء فأدوخ، وأقترب من الشاطئ فأحس أن قدمي تغوصان في الرمال، وأن الأمواج تضغط رقبتي بقبضة من حديد.. من هذا التاريخ اكتفيت من الشاطئ بالمشي، والجلوس، واكتفيت من البحر بالنظر إلى موجة، والسباحة في هوائه!

أما البنطلون الشورت فحتى هذه اللحظة لم أجرب على
أزتدائه ولو على سبيل التجربة.. وكيف أجرب الخوف والفزع
لى وللآخرين... فأنا فى حجم الفيل، وإنه شىء بخيف،
وفزع منظر الفيل.. وهو يرتدى البنطلون القصير أمام الناس
أو وحده، وفى الطريق العام.

الناس يستريحون فى المصيف لأنهم يحررون أجسادهم من
القيود، ويرتدون أخف الثياب، وأقصرها. ولا يشغلون
أنفسهم بمشكلات الحياة.

وأنا أستريح فى المصيف، برغم أنى لا أخفف ثيابى،
ولا أتخلص من فضول الكرافة، والجورب، والحذاء
المربوط... فلماذا؟ هل الجو وحده يكفى للراحة أم تترانى
استعيض عن تحرير جسمى من قيود اللبس، بتحرير عقلى
ونفسى من قيود التفكير فى مشاكل ومومى؟ ولسكنى أقرأ
وأفكر فى المصيف، أضعاف ما أقرأ وأفكر فى أى مكان آخر.
ولقد أحصيت عدد صفحات الكتب التى قرأتها خلال
الأسبوعين الماضيين فوجدتها خمسة آلاف صفحة! وأحصيت
عدد المشاكل التى واجهتها فوجدتها عشرين مشكلة.

لما هو إذن سر راحتي وهديتي وشعوري بالخفة
والانطلاق!

لقد حاولت أن أعرف السر في نفسي فلم أستطع، فرحت
أبحث عنه في نفوس أخرى... ثلاثة أشخاص تعودت أن
أراهم في الإسكندرية كل صيف.. وهم جميعاً يرتدون
الملابس الشتوية كاملة، وفيهم من يحتفظ بصديري فوق
القميص، و «بالجيترا» فوق الحذاء.. أستاذنا لطفى السيد،
والدكتور سليمان عزمي، وعمرن الخيول سيمون.. وكلهم
تجاوزوا الثمانين... وفي كل عام تتجدد أعمارهم، وتكتسب
فتوة، ونشاطاً، ونضارة!

إنهم لا يرتدون «الشورت»، ولا «المايوه»، ولا يسبحون
في الماء، ولا يمشون على رمال الشاطئ بأقدام عارية... إن
عقولهم ونفوسهم وقلوبهم هي التي ترتدى «الشورت»
و «المايوه».. إنهم يحرقونها من التفكير العميق، ويكتفون
بالنظرة العابرة، والمشاهدة السريعة... فأستاذنا لطفى السيد
معلم الجيل، وفيلسوفه، صاحب العقلية التقدمية، والفكر
الواعي المدرك يريح رأسه - خلال فترة الصيف - من

الدراسات الثقيلة ويكتفى بقراءة الجرائد والمجلات العربية والفرنسية. وهو يجلس في بهو الفندق يتأمل الراحين والغادين. ثم يستقل عربته إلى بلاج المنتره، ويعود إلى الفندق عند الظهر ليتناول طعام الغداء، ويسأوى إلى غرفته حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم ينزل إلى الفندق ليستقبل زائريه ويوزع عليهم ابتسامات من وحي يومه، وأفكاراً من وحي أمسه ! ثم يخلو بصديقه الدكتور سليمان عزمى ويلعبان الطاولة ساعة أو ساعتين !

والدكتور عزمى يقضى يومه مع أسرته الصغيرة، ويختلس من الساعات الأربع والعشرين ساعتين يقضيها مع صديقه لطفى السيد.

وسليمان عزمى أستاذ لأساتذة الطب الباطنى، وقد تخصص في مرض القلب، وهو نفسه يعاني هذا المرض من نحو خمسة وثلاثين عاماً !

وفي أثناء أشهر الصيف يغلق عيادته، ولا يعود المرضى إلا في الحالات المستعصية، وإذا رأيته اليوم في نشاطه وحيويته أحسست أنه شاب في الثمانين !

والممرن سيمون هو المريض الوحيد الذى يعودہ الدكتور سليمان عزمى فى الإسكندرية فهما ينزلان فى فندق واحد، وكلما انتابت سيمون أزمة قلبية استدعى له الفندق أقرب طبيب.. وسليمان عزمى هو أقرب طبيب من غرفة سيمون لأنه يحتل الغرفة المجاورة!

وقصة سيمون تدعو إلى الدهشة والعجب.. فهو قد اشرف على التسعين ولا يزال إلى الآن يتولى تدريب خيول السباق، ويذهب إلى الإسطبل كل يوم مرتين، ليتولى تضمير الخيل، وتقرينها، وعلاجها، وطريقة معيشتها..

وقد أصيب منذ عامين بمرض من أمراض القلب، وأجمع العلم والطب على أن أيامه معدودات، وذهبوا به إلى المستشفى، ولما طالت إقامته هناك ارتدى ملابس وغادر المستشفى إلى الفندق، وهاج أخوه الذى يصغره بأربعين عامًا وقال له: حرام عليك تترك المستشفى وأنت مريض مريض الموت!

وفى كل صيف كنت أرى سيمون ومعہ أخوه الصغير.. ووجدت فى هذا الصيف سيمون وحده.. فقد مات أخوه!

وكان الطبيب قد منع سيمون من أكل البطيخ، واستعمال الملح، وتناول الشاي، ولكن سيمون لم يخضع لتعليمات الطبيب. وظل يأكل البطيخ، ويستعمل الملح، ويتناول الشاي بإسراف شديد. وغضب «التمورجى» الذى يتولى خدمة سيمون وقال له: أنا لا أستطيع الاستمرار فى خدمتك مادمت لا تتبع تعليمات الطبيب.. ويقول سيمون: لقد عشت تسعين عامًا على البطيخ والملح والشاي.. ووجدت الذين لم يأكلوا البطيخ، ولم يستعملوا الملح، ولم يشربوا الشاي قد ماتوا فى ريعان الشباب.. فكيف أكذب الواقع وأصدق الطب!

وفى أحد الأيام تأخر «التمورجى» عن الحضور فى مواعده المعتاد.. وأقسم سيمون أن يضربه بالعصا، ولكن سيمون لم يبر بقسمه فقد مات «التمورجى»!

وسيمون يعيش بقوة الإرادة، والعناد، وقد كافح فى حياته حتى أصبح شيخ عمره الخيول. وفى إسطنبول تربت خيول سلطان والشرعى وأحمد ماهر وحفنى محمود وشعراوى وعبود وعشرات من خيول الوجهاء وأصحاب الملايين من أجانب ومصريين، وهو يحتفظ بذكريات، عن جميع الوزراء

وأصحاب السلطان خلال سبعين سنة مضت.

وسيمون قصير القامة، ضامر الجسم، عصبي، عنيد، يتوكأ على عصا خيزران وقد أنهكته الأيام حتى لم يبق منه إلا عناده، وعصا الخيزران!

ويقول أصدقاء سيمون إن عزرائيل زاره خلال العامين الماضيين مرتين.. فكان يهش عزرائيل بعصاه فيتقهقر عزرائيل احتراماً لشيخوخة سيمون، ولكن عزرائيل لا ينبغي أن يزور أحدًا ويرجع يده فارغة.. ففي الزيارة الأولى ترك سيمون وأخذ معه شقيق سيمون.. وفي المرة الثانية ترك سيمون وأخذ معه «تمورجي» سيمون!

إن سيمون مثل سليمان عزمي، مثل لطفى السيد، لم يرتد جسمه الشورت، ولا المايوه في أثناء الصيف.. ولكن ثلاثتهم كانوا يحرقون رؤوسهم وقلوبهم من القيود.. يجلسونها تلبس «الشورت» و «المايوه»..

نحن نتعلم.. لكى نحيا!

ما الحياة بالنسبة إلى الإنسان؟ هل هى أن يتنفس برئته، ويتحرك بجسده، ويأكل وينام؟ لو أن حياة الإنسان هكذا، لما الذى يميزه من الحيوان الذى يتصرف بغرائزه، ولا يقوى على أن يهذب هذه الغرائز أو يفلت من قيودها؟

لا شيء.. ولكن الواقع أن الفرق بين الحياة الإنسانية، والحياة الحيوانية، واضح وعميق فالحيوان يتنفس بالرئة، ونحن نتنفس بالرئة وبالذهن. والحيوان يتحرك بجسده ونحن نتحرك بأجسادنا وأفكارنا. الحيوان يرى بعينه. ونحن نرى بأعيننا ومشاعرنا وأفكارنا. الحيوان تمر به التجارب والأحداث فلا يهتم بها، ولا يستفيد منها، ونحن ندخل التجربة ونفيد منها، ونواجه الأحداث ونتأثر بها، وتؤثر فيها.. الحيوان يستسلم للغريزة، ونحن ندرس غرائزنا ونقدر على أن نتقى منها ما هو خير، ونتفادى ما هو شر. الحيوان يعبر الحياة فلا يضيف إليها شيئاً، ونحن نبني الحياة، ونطورها ونسمو بها..

وتفوق الإنسان على الحيوان، ليس تفوقاً في القوة البدنية، فالحيوان في هذا المجال أقوى، ولكن تفوقنا يكمن في هذا الجهاز السحري الذى اصطلحنا على أن نسميه العقل. فبالعقل سيطر الإنسان على ضراوة الوحوش، وسخر الطبيعة لخدمته، واستطاع أن يمنع الصواعق، ويواجه الزلازل، ويشق أجواز الفضاء، وينطلق في الكشف عن الكواكب الأخرى. ولكن العقل لا يستطيع أن يفرض وجوده إذا لم يمتلئ بالمعرفة والعلم وإذا عجز عن أن يتعلم فإن صاحبه لا يرتفع من مرتبة الحيوان. والعلم ليس له حدود، ولا شواطئ. ولذا يظل الناس يتعلمون من المهد إلى اللحد، وإنهم ليغادرون دنياهم وهم يتوقون شوقاً إلى أن يعلموا ما لم يعلموا. وإلى أن يواصلوا التفكير في الحياة التى يتسبون لها. فالتفكير هو الحياة. ولكى نفكر يجب أن نتزود بالمعرفة ونقبل عليها بنهم شديد.

وقد كان العلم فيما مضى، صوراً من المعلومات لا يكتونها إطار منهجى وظل يتطور إلى أن أصبح قواعد، وأصولاً، ونظريات.

التقوى الشائرة

كنت كلما التقيت بالإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت أحسست أنى أواجه تقوى شائرة.. تؤمن بالله، والإنسانية والحياة. فقد كانت عقلية متفتحة للمعرفة على اختلافها، وكان تبحره فى العلوم الإسلامية وفهمه لحقائق الدين، يثير الانتباه إليه. ولم أعرف بين رجال الدين من يفوقه فى قوة الجدل، وسلامة المنطق، والقدرة على الإقناع، والاستعداد للإصغاء إلى الرأى المعارض له بساحة ذهنية، وصدر رجب.

والشيخ شلتوت لم يكن عالماً دينياً يقول كلمته ويمشى، ولكن كان طيلة حياته مناضلاً؛ له مواقف تعرض فيها للفصل من الأزهر منذ حوالى ٣٢ سنة، فقد كان يعبر عما يعتقده حقاً ولا يبالى بالعواقب، على الرغم من أنه فقير لا يكاد يجد قوت يومه إلا من مرتب الوظيفة التى فصلته منها الحكومة إذ ذاك.

وكان يربطني بالشيخ شلتوت إعجابي به محدثاً في الإذاعة، وكتباً في الصحف والمجلات، وصديقاً كنت أجتمع به في جلسات نشر فيها مناقشات شائكة حول الدين والمجتمع، وكنت أخرج من هذه المناقشات وأنا حريص على أن تتكرر كل يوم.

وهو من أشد الناس وفاء لأهله، وأصدقائه، وأساتذته، وقد أخبرني أنه كان تلميذاً لعمي المغفور له الشيخ مأمون الشناوي شيخ الجامع الأزهر السابق، وقد ظل على صلة به، فلما مات عمي، لم تنقطع صلته بأبنائه، وماتت إحدى قريباتي، وجاء الشيخ إلى سرادق المآتم وجلس في عربته إلى أن انتهى المقرئ من تلاوة بعض آي الذكر الحكيم، فقد كان مريضاً لا يقوى على السير، وعز عليه أن يدخل السرادق محمولا على الأيدي، وعز عليه في الوقت نفسه أن يفوته واجب العزاء.

وقد لقيت الشيخ شلتوت في مكتبه عام ١٩٥٩ وكان الناس في جميع أنحاء العالم يتحدثون عن محاولات الوصول إلى القمر، وما أكثر الذين ارتجفت عقائدهم من هذه المحاولات

لأنهم رأوا فيها انتهاكاً لسر خطير من أسرار الله.
وسألت الشيخ عن رأيه في هذا الحادث الجسيم، وهل
يمكن أن يقال إن الوصول إلى القمر ليس هزيمة للعقيدة؟
فقال :

بل يجب أن يقال إنه نصر للعقيدة والدين وآية كبرى من
آيات الله، وأفاض في التدليل على ذلك بآيات كثيرة من
القرآن الكريم. ولما سألته ماذا يكون موقفكم إذا وجهت
إليكم دولة القمر الدعوى إلى زيارتها؟ فقال :

إذا ساعدتني صحتي على السفر فإن لن أتردد في الذهاب
إلى القمر وأنا أتمنى ذلك، بل أريده، لكى أرى بعينى أثرًا
من آثار القدرة الباهرة، قدرة الله الفعال لما يريد.

وقد عانى الشيخ من المرض طويلاً، ولكنه ظل إلى آخر
رمق من حياته يفكر، ويدرس، ويتابع أحداث العالم، ويرفع
كلمة الدين، بتقوى وثورة، وفهم ودكاء.

عندما سمعت نبأ نعيه في الراديو انحدرت من عيني دموع،
حزناً على نفسى. فقد كانت شخصية هذا الرجل قطعة طاهرة
من نفسى، ونفوس كل المسلمين.

الجمال.. أقوى من الحب!

والجمال.. ياله من قوة طاغية؟ ماذا يريد مني؟ وإلى متى
يظل يريد مني؟؟

لو أردنا أن نحصى كل ما قيل عن الحب والجمال، لملأنا
آلافًا من المجلدات، وبرغم ذلك مازلنا نعاني الحيرة في مفهوم
الحب والجمال، ونتساءل ما هما، وهل لهما حقيقة محددة، أو
أنهما شعور طليق ليس له حدود؟

والفرق بين الحقيقة والشعور، أن الحقيقة يمكن التعبير
عنها بسهولة. وإن كان الحصول عليها صعبًا، أو مستحيلًا.
وعلى عكس ذلك الشعور: الانفعال به سهل، والتعبير عنه
شاق، وأكاد أومن بأن الجمال والحب شعور ذاق، فنحن نحس
الجمال. ونفعل بالحب، دون أن نتجشم ما ينبغي أن
نتجشمه للوصول إلى الحقيقة من بحث، ومنطق وإدراك!
ولنتصور إنسانًا لا يشعر إلا بعد دراسة، ولا يفعل



لقد أحست النشوة من الفتاة الجالسة وراء الحزانة وبجوارها آلة التليفون

[ص ١٠٣]

بالحب إلا بعدما يستخدم علمه ومنطقه.. إن مجرد هذا
التصور يثير السخرية حقاً !

الحب شعور لأنه ينبع من داخلنا، والجمال شعور لأنه
أيضاً ينبع من داخلنا.. فاعترافنا بالجمال لا يتوقف على
خضوع ما نراه جميلاً لمقاييس اصطلاحنا عليها، وإنما نعترف
بجمال الشيء إذا ما انفعلنا به وتجاوزنا معه.

وقد تنجذب إلى ذات، أو جو، أو منظر، يحس غيرك
نفوراً من هذه الذات، وهذا الجو، وهذا المظهر !

الجمال إذن مثل الحب ليس صورة عامة خارجية، ولكنه
إحساس ذاتي ينبع من نفوسنا.

ولكن هذا استطراد ربما أقصاني عن الخاطر الذي أريد
تسجيله في هذه السطور.. وهو خاطر بسيط، لا يحتاج إلى
كل هذا التعقيد..

منذ عشر سنوات، كنت أقضي إجازتي الصيفية في أحد
الفنادق بمدينة الإسكندرية، واتفقت مع صيدلية قريبة من
الفندق على أن ترسل لي « الثموري » صباح كل يوم، ليحقني
بالأنسولين وكل الفيتامينات اللازمة لمن يعانون مرض السكر.

وكنْتُ أشعر بالراحة والحرية، وأنا أتناول الحقنة في غرفة النوم، فإن ذلك يبيِّن لي أن أستلقي على السرير وأمارس أجل لعبة رياضية تطيل العمر.. وهي لعبة الكسل!

واتصلت بي الصيدلية، وأخبرتني أن «التمورجي» مريض، وأنه لا يوجد عندها من يتولى مهمته إلا الطبيب الصيدلي، وهو لا يستطيع مغادرة الصيدلية.. وحاولت أن أقنع الصيدلي بزيارتي ولكنه رفض.. فلم يسعني إلا أن أذهب إليه لأتناول حقنة تحت الجلد، وحقنة في العضل.. وشعرت بضيق شديد.. هل سأرتدى ملابس الخارجية يوميًا وأتوجه إلى الصيدلية، ثم أعود إلى غرفتي وأخلع ملابس لي لأستريح، أو أظل خارج الغرفة دون أن أستريح!

ولم أكد أدخل الصيدلية، حتى شعرت بنشوة عميقة.. الصيدلي رجل وقور مهذب، ونظام الصيدلية رائع مريح.. ولكن هذا لم يكن مبعث نشوة، لقد أحسست النشوة من الفتاة الجالسة وراء الخزانة، وبجوارها آلة تليفون.. ما جدوى أن أصف عينيها، وقوامها، وابتسامتها.. وصوتها.. إن هذه السمات والملامح ربما كانت في مستوى متواضع

لجمال لو أن للجمال مستوى.. ربما! ولكنها فتتني وأغرنتني
 بأن أتردد على الصيدلية في اليوم الواحد عدة مرات.. أشتري
 الدواء، وأعود بعد دقائق وأسأل عن دواء أعلم أنه غير
 موجود!.. ثم أعود وأشتري كولونيا، أو صابوناً، أو أمواس
 حلاقة، أو معجون أسنان!

وكان بجوار الصيدلية مقهى صغير. فأخبرت الفتاة أني
 سأجلس في المقهى أنتظر مكالمات تليفونية سيحولها الفندق على
 الصيدلية.. وكنت قد أوصيت عامل تليفون الفندق أن
 يطلبني كل نصف ساعة في رقم تليفون الصيدلية!

وبعد أيام. عاد «التمورجي» إلى العمل، وأراد أن يوافيني
 في الفندق كعادته قبل أن يمرض، ولكنني أفهمته أني مستريح
 إلى تناول الحقة في الصيدلية.. وسألني: أليس في هذا تعب
 لك؟ وأجبت: بأن الذهاب إلى الصيدلية والعودة منها إلى
 الفندق يريحني جداً. ولم يكن فيما قلته كذب أو مبالغة. فإن
 رؤيتي للفتاة كانت تتيح لي لذة أحلى من لذة الاعتكاف في
 غرفتي، والاستلقاء فوق السرير، والاسترخاء على المقعد،
 والإغراق في الكسل!

وكان لى فى ذلك الحين قلب يمارس حبًا عابثًا..
 فحررتنى فتاة الصيدلية من حبي.. لم أحبها، فقد كان جمالها
 أقوى من أن أحبها.. وكان أقوى من حبي لغيرها!
 الجمال.. ياله من قوة طاغية! ماذا يريد منى؟ وإلى متى
 يظل يريد منى؟؟

الشمس المحتجبة

إن الشمس إذا غربت لا تأفل ولكن تحتجب عن أعيننا،
 وتظل فى دورانها إلى الأبد.. وكذلك الفنان، إنه لا يذهب
 عنا بالموت، ولكن يغيب ويتحول من مظهر فى الحياة، إلى
 جوهر للحياة!

هكذا أحسست وأنا أتلقي نعى الفنان العبقري إبراهيم
 أدهم وانلى.. عرفته منذ عشر سنوات مضت، كان هو
 وشقيقه محمد سيف الدين وانلى موظفين صغيرين فى مدينة
 الإسكندرية.. ووصلا إلى القاهرة ليقدموا ألواناً من رسومهما
 للمصحف والمجلات وكان الأستاذ كمال الملاخ مؤمناً بفنهما،
 وحاول أن ينقل هذا الإيمان إلينا، وكنا نعمل معاً فى جريدة

«الأهرام».. ولكن محاولته لم تنجح..

فقد كانت طريقتها غير مألوفة.. وعرفت من كمال أنها
يرسمتان معاً، ويفكران معاً، وأنها لشدة اندماجهما يكادان
يكونان شخصاً واحداً!

ورأيتهما بعد ذلك لأول مرة في دار «أخبار اليوم»
وشعرت بنفور شديد منها.. قوام ضخم، وملامح مشوهة،
وملابس غريبة بذلا أكبر عناية في إهمال تفصيلها.

ثم التقيت بهما بعد ذلك، وتحدثت معهما. فلمست فيها
رقعة لا تتفق مع قسوة مظهرهما.. كان كلاهما يحمل قلب
طفل وعقل فيلسوف.. الحياة عندهما أن تحب، وتعمل،
وتكبح.. كنت أشم في لوحاتهما رائحة العرق المتصبيب من
الروح والفكر والجين!

لقد ظلّا يعملان في صمت، وتعفف، وزهد، أربعين
عاماً.. كانا يعانيان شظف العيش.. لم يتحصنا في أسرتهما
وفيهما أمير، وباشا، ورئيس وزارة.. وقنعا بالوظيفة ذات المرتب
الزرى وعكفا على الدراسة حتى أصبح كل منهما أستاذاً في
المعهد العالى للفنون، مع أنهما لم يتعلما في أية مدرسة عالية!

إذا تكلمنا عن فن أدهم وانلى، فقد تكلمنا عن فن شقيقه سيف، فهما صاحبا مدرسة يرى النقاد أنها تأثرت بطريقة الرسام العالمى «ديجا». وهؤلاء النقاد أنفسهم يعترفون بأنه لا يوجد للأخوين وانلى مثل فى إبداعهما وتفوقهما. فقد تميزا بالقدرة على الرسم بصراحة فى الحركة، ووحدة فى الألوان.

ومن المفارقات الجديرة بالتسجيل، أ الأخوين المنحدرين من سلالة أرستقراطية، عاشا فى الجو الشعبى واهتما بتسجيل الموضوعات الخوشية!

وكان آخر ما رسماه.. عشرات من اللوحات تمثل معابد بلاد النوبة ومن بينها معبد أبو سنبل.

وقد سجلا فى عدة لوحات كل رقصات فرق الباليه التى زارت مصر، وهى لوحات تمتاز بالعنف فى اختيار الألوان، وتجسيم الحركة، حتى لتكاد تسمع فى الرسم ديبب الرقص وعزف الموسيقى!

وكلا الأخوين يسكب روحه فى اللوحة التى يرسمها، وكلاهما يتميز بموهبة أصيلة، وعين ذات ذاكرة قوية..

فلا ينسى أحدهما حركة، أو نبضنة، أو اختلاجة مما يراه،
حتى إذا عكف على الرسم سجل كل ما شاهده.. بفهم،
وفن، ودقة..

ليس هذا بكاء على أدهم وانلى فحزنى عليه أعجزنى عن
البكاء، وما هو بدراسة لعمله فلست ناقدًا. وإنما أنا متأثر
بالعمل الفنى، وأحبه وأدين لكل لوحة، وكل نغمة بتطير
ذوقى ومحاولة الارتفاع به.

وأنا مدين لوانلى، مدين للوحاته العظيمة، ولست وحدى
المدين، دنيانا كلها مدينة له.. فقد خلدها بفنه..



الإنسان البدين.. قليل الدين!

عانيت في هذا الأسبوع أزمة صحية لا عهد لي بها، كنت في الأزمات السابقة أعرف مرضى، فأقاومه بمختلف الأدوية والعقاقير، أحياناً أستشير الطبيب، وأحياناً لا أستشير..!

في هذه الأزمة لم أعرف المرض الذى أقاسيه على وجه التحديد، هل هو برد؟ ولكن البرد يقترن عادة بزكام، وسعال وارتفاع في درجة الحرارة، غير أنى لم أشعر بزكام، أو ارتفاع في درجة حرارتي، ولم أحس إلا السعال العادى الناشئ من تلخين السجائر بنهم شديد..

هل هو ضغط دم؟ الطبيب أكد لي منذ شهر مضى أن ضغطى طبيعى؟ هل هي حالة من حالات الكبد والمرارة؟ لا أدري... كل ما أدريه أنى لم أكن أستسيغ طعم الماء أو الأكل أو السجائر، وأن رأسى يئن من الدوار، وأطرافى باردة وجسمى كله منهرا!

وذهبت إلى واحد من أطبائي العليدين، وقد اخترت هذا
الطبيب بالذات لأنه يميل إلى الأدب، والفن، والفلسفة، وهو
متفائل دائماً، يجيد الابتسام في وجوه مرضاه، يستوى في ذلك
المريض المتأمل للشفاء، والمريض المشرف على الموت !
وفحصني طبيبي، وقرر أني مصاب بحالة من حالات البرد
ساعد على شدتها مرض السكر !

وقلت له : إنني أسير طبقاً للنظام الذي وضعه لي، لكي
أقاوم السكر، وصارحته بأن منذ اتبعت هذا النظام، وهن
عظمي، فلا أكاد أتحمل نسمة باردة، وأصابني الأرق
فلا أستطيع أن أنام إلا بالأقراص المنومة، والحبوب المهدئة
للأعصاب !

وضحك الطبيب وقال : إن الهزال هو العلاج الوحيد
لمرض السكر.. ولو استطعت أن تخفض وزنك أكثر من ذلك
فسوف تبرأ من مرض السكر حتماً !

واعترضت على رأيه هذا بأن بدانتني ليست طارئة، وإنما
هي طبيعية، فقد خرجت إلى الدنيا وأنا من الوزن الثقيل،
وعشت طفولتي وصباي وشبابي بديناً، وكنت برغم بدانتني

إنساناً نشيطاً، أجرى دون أن الهث وأركب البسكليت،
وألعب البلياردو، وأصعد إلى الدور الرابع عشر مرات في اليوم
بأنفاس هادئة ومتظمة!

وقال الطبيب: إن تكوينك غير طبيعي، ومهمة الطب أن
يجعلك إنساناً طبيعياً، لا تتعرض لأمراض أخرى أشد خطراً
من مرض السكر، فأصحاب الوزن الثقيل، معرضون أكثر من
غيرهم لضغط الدم، وتصلب الشرايين وتضخم الكبد، وكل
أمراض القلب....

وذكر أنه قرأ في إحدى المجلات العلمية، أن بعض رجال
الدين في أوربا، يرون أن البدانة خطيئة يعاقب عليها الدين!
وأن الإنسان البدين يعد ملذنباً، وعاصياً، لأن البدانة
تنشأ من الإفراط في الطعام وقد نهى الدين عن الإفراط في
كل شيء!

وقلت لطبيبي إن ديننا يدعو إلى ذلك أيضاً، فمن تعاليم
الإسلام: «خير الأمور الوسط» و«نحن قوم لا نأكل حتى
نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» و«جوعوا تصحوا».
وممت بالانصراف، فقال لي: انتظر حتى أكتب لك
«الروشة».

وقلت له لا حاجة لى بالروشته لقد عرفت دوائى : لن
أكل حتى أجوع، وإذا أكلت لن أشبع.
وقال الطبيب الفيلسوف : لو طبق مرضاى هذه الحكمة
لاعتزلت مهنة الطب !

وذهبت إلى البيت ووجدت فى انتظارى صينية بطاطس
مدعمة باللحم، وطاجناً من الأرز.. ولعنت الأنانية التى
تجعلنى أؤثر صحى على أن يمارس طبيبى مهنته.. لعنت
الأنانية والتهمت البطاطس والأرز، حتى أستطيع أن أتردد على
الطبيب فى اليوم التالى !

إن التجارب علمتنا أن المرض مثل العمر، سر غامض،
وقد عرفت ناساً كانوا يأكلون بنهم ولم يمرضوا، وناساً كانوا
يأكلون بحذر وظلوا طول حياتهم مرضى....

ومنذ سنوات أصيب أحد أصدقائى بقرحه فى المعدة،
وذهب إلى أوربا، وعولج من مرضه، وعاد إلينا صحيحاً
معافى، وذات يوم صدمته سيارة ومات !

ليست هذه الخواطر دعوة إلى الناس بأن يخرجوا على
تعاليم الطب، وإنما هى برقية عزاء أبعثها إلى نفسى.. بعد
أن أكلت صينية البطاطس وطاجن الأرز !

الفن والفنانون

هل نحن نحب الفن؟ أو أننا نحب الفنان؟ ظل هذا السؤال يلذع مشاعري وأنا أشيع جنازة الفنان أنور منسى. ولما وصلنا إلى قبره، ورأينا جثمانه يهبط القبر انهمرت الدموع من عيني، وأحسست أن حريقاً شب في ضلوعي..

وكان كل من في القبر يبكى. أصدقاءه، وزملاؤه، إخوته، أبوه... كانت أمه هي الوحيدة التي لم تذرف دموعاً عليه. كانت تتخيله مازال حياً. وتعجب كيف تتركونه وحده في هذا المكان.. وهو الذي كان يحب الناس، يجتمع بهم، ويصادقهم، ويندمج معهم.. كيف ينام هكذا مبكراً قبل المغرب وهو الذي تعود السهر حتى الصبح؟ كيف تلفونه في الكفن وتوسدونه التراب. وهو الرشيقي الأبيض الذي يحسن اختيار ما يرتديه، واختيار ما ينام عليه..

وتنفضي الأم الذاهلة فتخاطب ابنها قائلة: إلى أين

يا أنور؟ كيف تتركني وحدي وكيف أتركك وحدك يا رفيق
عمرى؟

قم.. تكلم.. ابتسم.. اعزف على الكمان.. هؤلاء هم
أصدقائك جاءوا كلهم ليسمعوك.

وأطبقت أيدي الحفارين على قبر أنور منسى، وغبطوه
بالرمل والورود، وعندئذ أفاقت الأم من ذهولها، وصرخ كل
ما فيها.. قلبها، فيها، عيناها! وولولت بصوت خنقته الدموع،
ولدى. ولدى.

وعدنا إلى موكب الحياة، بعد ما نفضنا أيدينا من تراب
القبر الذى ضم فنائاً ساهم فى جمال الحياة. فإن أنور منسى
لم يكن مجرد عازف كمان، ولكن كان فنائاً مرهف الشعور،
رقيق العاطفة، يحب، وينفعل، ويتأمل، ويتجاوب. وكان
بعزفه الساحر البارع على الكمان يخلق للنغمة نبضاً، وعروفاً،
ودمناً.. وكنا نحن الذين عرفناه عن قرب نحس وهو يعزف
على الكمان أن خفقات قلبه قد انتقلت إلى قلوبنا.

عرفت أنور من حوالى عشرين عاماً، وكنت مولعاً بعزفه،
وهو بعد فنان ناشئ، وعندما أصبح أنور منسى فنائاً كبيراً، لم

ألمح عليه مسحة من الاستعلاء أو الغرور. فقد ظل ذلك الإنسان الودود الوديع، يحنو على كمانه بركة وثقة، ويذوب في النغم. ويذوب النغم فيه.

ولقد برع أنور في العزف المنفرد، وكان معروفاً بالشيوخ الخارق في عزف الألحان العالية، ولكن أنور كان نابغاً أيضاً في عزف النغمات العربية.

ومنذ أشهر قليلة، سهرنا معه، وظل يعزف على الكمان أنغام العتابى والليالى، وبعض التقاسيم الشرقية، فهزنا من أعماقنا.

وفي ذات صبح اتصل بى أنور منسى، ودعانى إلى حفلة ساهرة اتفق مع أحد أصدقائه على إقامتها فى الهرم احتفالاً بعيد رأس السنة. واعتذرت من عدم استطاعتي تلبية دعوته فسألنى: هل عندك حفلات أخرى؟

ولما قلت له إننى لن ألبى أية دعوة لأية حفلة، ضحك وقال: إنك فى كل سنة تحب أن تستقبل العام الجديد فى أكثر من مكان.. فاستقبله عندنا، وعند غيرنا!

وقلت له: إننى منذ ثلاثين سنة أستقبل السنة الجديدة

مع الناس.. أستقبلها في اليبسوت، والشوارع، والأماكن العامة.. وكانت السنوات التي أهم باستقبالها، تعرض عني، أو تنكبي في صحتي.

ولقد قررت ألا أستقبل أى عام جديد، لن أستقبل السنة الجديدة، ولكني سأنتظرها.. سأنتظرها في بيتي.. سأنتظرها وحدي؟ وما هي السنة الجديدة بالنسبة إلينا؟ إنها زيادة في عمر زماننا ونقص في أعمارنا.. فلماذا نحتفل بها؟ وقال أنور: هذه فلسفة لا أفهمها.. فلسفتي التي أومن بها هي ببساطة: اضحك يضحك لك العالم، وافرح بالأيام تفرح لك الأيام!

وضحك أنور منسى للعام الجديد، وفرح به، وغنى، ورقص.. وجاء العام الجديد فمزق قلوبنا حسرة على الفنان الذي كان بحياته وفنه جوا، ودنيا، وحياة.

هل نحن لمحبي الفنان؟ أو نحن لمحبي الفن؟ إننا لمحبي الفن من خلال الفنان، فلا فن بغير فنان، ولقد أحببنا فن أنور من خلاله. وكان حبنا لأنور، مثل جزننا عليه، صادقاً، وعميقاً..

عقلي .. وصحتي !

ما أكثر الكلمات التي وعاما ذهني وأنا صغير، فبهرتني من هذه الكلمات حكمة تقول : « العقل السليم في الجسم السليم ».

وكنت أظن أنني سأظل مبهوً بها طول عمري . فالأذهان في مرحلة الطفولة، مثل الأرض، تحتفظ بالبذور المغروسة فيها. البذرة القوية تنمو، والبذرة الضعيفة تذوب في الأرض وتصبح جزءًا من الأرض !

ولكن سوء حظي أغرائني بأن أناقش الحكمة القديمة، وأدخل معها في تجربة، وانتهت المناقشة والتجربة بأن اقتلعت الحكمة من رأسي، فقد اتضح لي أن سلامة جسمي تقتضي أن أقيّد عقلي فيصبح عاجزًا عن أن يفكر، أو يتخيل . وما جدوى العقل إذا عجز عن التفكير والخيال !

إن جسمي لكي يكون سليمًا من المرض، يجب أن أتبع في حياتي نظامًا صارمًا، فأمتنع عن الطعام الذي أحبه،

ولا أتناول من الأطعمة إلا ما لا أطيقه كاللحم المسلوق،
والخضر الخالية من الملح، والخبز الأسمر الجاف.. الخيار
فاكهة.. واللبن الزبادى حلوى!

ويجب أيضاً أن أقلع عن السهر، وأنام مبكراً، وألغى
الليل من يومى ولا أعترف إلا بالنهار..

ولا ينبغي أن أدخن سيجارة، أو أشرب فنجان قهوة،
حتى لا يرتفع ضغط الدم، أو أتعرض لهبوط فى القلب!

ولقد خضعت لهذا النظام فترة طويلة، فاكسبت صحتى
نضارة، ولكن عقلى أخذ يذوى، ويذبل وخيل لى أنى فقدته
فكنت أدق على رأسى بأصبعى.. أحاول أن أبحث عنه
كما لو كان شيئاً مادياً ضائع منى!

وفى هذه الفترة قرأت كتاباً قيماً عنوانه (عقلك مصدر
الصحة والمرضى) وهو من تأليف الدكتور (ك. س. وختل)
وقد ولد فى ألمانيا عام ١٨٩٧ وتلقى علومه فى جامعاتها،
وتخصص فى الطب العقلى، والطب النفسى الجسمى، ورحل
إلى أمريكا فى ١٩٣٧. وتوفر على معالجة حالات كثيرة من
الأمراض، وعكف على دراسة مرضاه نفسياً وجسدياً، وعقلياً

واستخدم دراساته وتجاريه في كتابه الشائق الذى يقع فى أكثر من ٣٠٠ صفحة.

وقد ترجمه الأستاذ سامى على الجبال وراجعه الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة.

والفكرة الجوهرية للكتاب هى - كما يقول الدكتور مراد - أن ما يحدثه التفكير الخاطئ من اختلال فى الصحة الجسمية والنفسية، يمكن للتفكير السليم الواقعى أن يعالجه. ولا يعتمد المؤلف فى تدعيم فكرته على مجرد الجدل النظرى، بل يذهب مباشرة إلى الواقع ويستخرج من ملفات مرضاه عددًا كبيرًا من الحالات، تاركًا للواقع الحى، أن يتحدث بلغته المقتنة.

ولقد أخذنى الكتاب بأسلوبه البارع فى سرد التجارب، وشرحها وتيسيرها بحيث يستطيع القارئ العادى أن يستوعب أدق الحالات.

والكتاب يتناول عدة فصول أهمها (ما الذى يجعلك مريضًا، وما الذى يجعلك سليمًا) و (المرض بالوهم مريض فعلا وعقله يستطيع أن يشفيه).

وكل فصوله تزخر بقصص حقيقية لمرضى باشر الدكتور (وختل) علاجهم بنفسه. وبينهم من أدرك عقله حقيقة ما يعانيه واتبع نصيحة الأطباء فعاش، وبينهم من أخطأ فهم الحقيقة أو أدركها ولكنه لم يقتنع بها فمات.

أحد المرضى كان يشكو من المرض بصفة عامة، وعرض نفسه على أمهر الأطباء فاثبتوا له أنه ليس مريضاً. ولكنه لم يصدق أطباءه وصدق نفسه، وانتقل إلى العالم الآخر.. وجاء في تقرير وفاته أنه (مات في أحسن صحة).

استهوتني من الكتاب نظرية تؤكد أن الأمراض والإصابات تثير في الجسم نشاطاً داخلياً فيرسل الجسم تلوغرافات إلى المخ، ويتولى العقل حل رموز هذه التلوغرافات.. مثلاً إذا أصابك جرح خارجي فإنك تتلقى من داخل الجسم برقية تأمرك: (بأن تضمّد الجرح وتستدعي الطبيب) والعاقل من ينفذ الأمر فوراً فيظفر بالشفاء!

ولقد دفعني الإعجاب بهذه النظرية إلى أن أطبقها على نفسي، فجعلت من غي جهاز استقبال للبرقيات التي أتلقاها من داخل جسمي.. وكانت أول برقية مغصاً في الجانب

الأيمن من البطن وحللت رموزها فإذا هى حالة «مصران»
أعور.. وذهبت إلى الطبيب وفحصنى وقرر أنى لا أعانى أى
التهاب لا فى «المصران» الأعور ولا فى «المصران» الغليظ!
وكانت البرقية الثانية ضيق تنفس وفهمت من الرموز أن
هذا الضيق إنذار بذبحه.. وفحصنى الطبيب وقبر أنى على
ما يرام.. وكانت البرقية الثالثة دواراً فى رأسى وارتخاء فى
جفونى، وأدركت أن هذه أزمة كبد.. وفحص الطبيب حالتي
وقال لى: الكبد فى أحسن حال!

وكنت وأنا مهم هذا الاهتمام بالبرقيات التى أتلقها من
صدرى وأمعانى أسير طبقاً للنظام الطبى الصارم. لا سهر،
ولا تدخين، ولا طعام، ولا قهوة، ولا انفعال بالحياة!
وفى لحظة من لحظات هياج الأعصاب قررت أن أصفى
جهاز استقبال التلغرافات، التى أتلقها من داخل الجسم حتى
أريح نفسى من الحيرة هل أنا أعانى المرض؟ أو أنا أعانى
الوهم.. ثم إن وجدت أن اهتمامى بصحتى، قد أورتنى ضياع
عقلى.. فإن اتباعى لنصيحة الأطباء قد حولنى من جنة هامة
إلى جسد يتحرك ولكنه فى الوقت نفسه قد جعل من رأسى
ضريحاً يضم رفات عقلى!

إن النظام الذى وضعه لى الأطباء يحتم أن أستسلم
للفراش. ويرقد جسدى فلا يتحرك. ويرقد عقلى فلا يفكر..
ويرقد قلبي فلا يفعل!

وهذا النظام قد يطيل عمرى، ولكنه لن يطيل حياتى.
لقد قاطعت السجائر، فشفى الله صدرى وحلقت من
الكحة والسعال، ولكنى كنت أحس أن عقلى يسعل ورأسى
يكح.

إن دخان السجارة هو العصا التى تتوكأ عليها خواطرى،
والأجنحة التى تخلق بها أفكارى وأنا لا أستطيع أن أعيش
بدون خواطرى، وأفكار!

أستاذ جيلين

اليوم يجتمع أصدقاء أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد،
فى مسكنه القديم بمصر الجديدة، لمناسبة بلوغه العام الرابع
والسبعين. وقد قرروا أن يحتفلوا بهذه المناسبة فى الصباح..
فالعقاد الذى سهر الليالى ستين عامًا يبحث، ويفكر،

وينظم الشعر، ويؤلف الكتب. أصبح بحكم السن لا يسهر
إلا في النهار

إن العقاد أستاذ جيلين أو أكثر فنذ نيف وخمسين عاماً
بدأ اسمه يظهر في حياتنا الأدبية، كأحد ثلاثة من طليعة
الشائرين المجددين في الشعر، الداعين إلى وحدة القصيدة.

أما زميلاه الآخران فهما عبد الرحمن شكري وإبراهيم
عبد القادر المازني.

وقد كتب العقاد مقدمة الجزء الأول من ديوان شكري في
عام ١٩١٢. وتعد هذه المقدمة أول دراسة جاءت واعية
لفهوم الشعر، ومن يقرأها اليوم تأخذ الدهشة لما تنطوى
عليه من آراء متطورة والتفانيات ذهنية إلى جميع اتجاهات
الأدب العالمي.

وقد ظل العقاد طيلة حياته يمارس الكتابة والاطلاع،
والدرس بعمق ومعالجة ويستزود بالثقافات الإنسانية على
اختلافها، ويتابع بفهم ووعي كل ما يصدر في العالم من كتب
في الفلسفة وعلم النفس، والمنطق، والسياسة والتاريخ،
واللغة، والدين، وفنون النحت، والرسم، والموسيقى والمسرح.

والعقاد شخصية إنسانية فذة فهو أستاذ نفسه . وتلميذ نفسه أيضاً. فإزال حتى هذه اللحظة يخصص وقتاً لتلميذته هو الوقت الذى يقضيه فى القراءة، ويخصص وقتاً لأستاذيته هو الوقت الذى يكتب فيه !

والعقاد شاعر، ومفكر، وكاتب. وقد اشتركت فى تكوينه نزعة العاطفة ونزعة العقل، وكان فى مطلع شبابه لا يتحيز لإحدى النزعتين وأخيراً أثر العقل ولاذ بحماه فهو يسيطر بعقله على جميع انفعالاته العاطفية والفكرية وما أكثر ما اشتبكت فى عقل العقاد عناصر الشك واليقين. ثم انتهى هذا التشابك إلى إيمان راسخ بالدين والعلم معاً.

ولقد أصدر العقاد حوالى ثمانين كتاباً تؤكد جدارته بالقمة التى يجلس فوقها.

وعندما بلغ السبعين من عمره كان عدد الكتب التى ألفها يوازى عدد السنين التى عاشها، وقد سألته إذ ذاك :

«لو التقى بك التاريخ وقال لك أنبا مسافر الآن إلى الأجيال القادمة.. وأريد أن أحمل معى إلى أبناء هذه الأجيال كتاباً واحداً من كتبك فما هو الكتاب الذى تختاره؟»

فقال بلا تردد : أختار كتابي عن ابن الرومي ..

وابن الرومي مغرور بشؤمه، وقد لحق شؤمه بالعقاد.
فعندما كان يؤلف هذا الكتاب قدمته النيابة إلى المحاكمة بتهمة
الغيب في ذات الملك فؤاد وأدانتة محكمة الجنايات، وأمضى في
السجن تسعة أشهر.

وسألت العقاد : لماذا اختار كتابه عن ابن الرومي ؟

فقال :

هذا الكتاب يحدد مقاييسي في النقد، وخلاصة رأبي في
الأدب الإنساني.

ودار بيني وبينه حوار أسجل منه هذه السطور :

- ألا تخاف على نفسك وأنت في التاريخ من شؤم

ابن الرومي ؟

العقاد : إنني ما خفت على نفسي من شؤم ابن الرومي
وأنا حي أستطيع الخوف .. فهل أخاف منه بعدما تنتهي الحياة
وأصبح عاجزاً عن كل شيء .. حتى عن الخوف !

- ألا تخشى أن يمتد شؤمه إلى عمرك الآخر .. عمر

الخلود ؟

العقاد : أصبحت لا أكثرث بالخلود !

- هل تتساوى قدرتك على التعبير الفني مع قدرتك على
تلقي المعلومات والانفعال بالشعور ؟

العقاد : أظن .. ربما .. نعم !

- هل تحب أن تغزو التاريخ بشعرك أو بكتابتك ؟

العقاد : بشعري ..

- وأى قصيدة تختارها لتغزو بها التاريخ ؟

العقاد : قصيدتي «ترجمة شيطان» .

- ولماذا تختارها وحدها ؟

العقاد : لأنها تصور معنى الجانب الشعري والجانب
الفكري .

- هل تعتقد أن التاريخ سيحتفظ بكتاب آخر من كتبك

غير كتاب ابن الرومي وقصيدة أخرى من شعرك غير قصيدة
ترجمة شيطان ؟

العقاد : هذا الأمر لا يعني !

ربما شك بعض الناس في أن العقاد لم يقل الحقيقة

عندما أجاب هذه الإجابة. ولكن الذى لاشك فيه أن الاحتفاظ بآثار العقاد أمر يحرص عليه التاريخ.

لماذا تخاف الموت؟

أمضيت فترة من الصباح مع أهلى الذين سبقونى إلى المصير المحتوم وقفت على قبورهم، تلوت فاتحة الكتاب على أرواحهم، واستمعت إلى آى الذكر الحكيم يرددها أناس ليسوا حكماء! فهؤلاء الذين يرددون القرآن الكريم فى المقابر لا تسمع منهم ألفاظاً ولا أصواتاً، ولكن حشجة كحشجة الموت!

وظللت أفكر فى الموت، لماذا نتهيه ونخافه؟ لماذا يخافه من لا يؤمنون بحياة أخرى غير هذه الحياة إنهم لن يذهبوا - كما يعتقدون - إلا إلى العدم فكيف يخشونه وهم لن يشعروا به؟

ولماذا يخاف الموت أهل الشك وفى الموت نهاية لحيرتهم، وجواب عن سؤالهم الدائم: إلى أين؟ إن ذهبوا إلى غير مكان فهم لن يشقوا، لأنهم لن يحسوا.. وإن ذهبوا إلى عالم

آخر فسوف يسعدهم أن يجدوا ما ظلوا طول الحياة يبحثون عنه ولا يجدونه !

ولماذا يخاف الموت من لم يستطيعوا أن يؤمنوا، أو يلحدوا، أو يرتابوا ارتياباً صريحاً مثل أينشتين الذى سئل : هل تؤمن بحياة أخرى؟ فلم يقل لا.. ولا نعم.. ولا ربما.. وقال : « حياة واحدة تكفينى » !

لماذا يخاف الموت من يقتنعون بالحياة الواحدة، وهو إذا انتهى بهم إلى غير حياة لم يفقدوا شيئاً لأنهم كانوا قانعين بحياة واحدة، وإذا انتهى بهم إلى حياة ثانية فقد منحهم حياة لم تدخل حسابهم؟

لماذا يخاف الموت من يؤمنون بالبعث؟ إن كنا نخاف عذاب الله فى الآخرة. نخشى الله فى الدنيا وهو أمر لا يحشمناء عناء ولا تعباً، فليس مطلوباً منا أكثر من أن نكون رحاء، عادلين، أما الذنوب التى لا تؤذى بها أحداً فسوف يغفرها الله لنا.

ولقد ألقت حياتى، وعلاقاتى بالناس، على أساس من الرحمة، والحب والعدل وأعتقد أن الله راض عما أخذت به

نفسى، فأنا لا أكره أحدًا، ولا أظلم أحدًا، حتى من يظلمنى
أقاومه، وأناهمضه ولكنى لا أجرده من مواهبه وقضائله.

أعترف له بمزاياه، وأحارب عيوبه، ولا أجرؤ على أن
أصفه بما ليس فيه، فلا أرميه بالجهل إذا كان عالمًا، ولا
بالظلم إذا كان عادلاً.

أذكر صوابه وأهاجم أخطئه، ولا أغريه بأن يقع فريسة
هذه الأخطاء بل أعمل على تبصيره بخطئه، ولا أتمنى أن
انتصر عليه بل أتمنى أن ينجو من الخطأ.

الحب، والعدل، والرحمة، تجرى فى دى، وتنفض فى
عروقى، ولست أحب أصدقائى فقط، ولكن أحب خصومى
أيضًا، ولانى أحبهم أخالفهم فىا أعتقد أنه ليس صوابًا،
ولست أرحم أصدقائى وحدهم، ولكن أرحم خصومى كذلك
فلا أغدر بهم ولا أطعنهم فى ظهورهم، ولا أرميهم بما ليس
فيهم.

وأنا أحكم بالعدل بين الناس والآراء. والأشياء. وإذا
تميزت لصديقى سألت الله أن يكون هذا التحيز رحمة وليس
ظلمًا.

وإني أومن بالبعث، وأعتقد أننا سنقف جميعًا بين يدي
الله يحكم بيننا بالعدل والرحمة والحب، ومع ذلك شعرت
عندما وقفت على قبور أهلي، أني أتهيب الموت وأخشاه،
لماذا؟ لست أدري!

السماء والأرض

تعودت منذ كنت طفلًا صغيرًا، أن أحقق في السماء.
فأشد نظري إليها، أحاول أن أعد نجومها، وأتبع سير السحب،
وهي تتجمع، وتتفرق. أجرى معها إذا جرت، وأتوقف إذا
وقفت وكنت أحب الذهاب إلى قريتي، كي أتمكن من التفرغ
لرصد النجوم في الليل. من فوق السطح، أو في المزارع وكان
جدي رحمه الله ينهاني عن ذلك ويقول لي:

إن هذه العادة ستورثك الجنون. فإن النجوم خلقت لتنظر
إلى الناس. والناس خلقوا لينظروا إلى الأرض.. فانظر إلى
الأرض.. وأقول له: وما فائدة النظر إلى الأرض؟ فيقول:
لنزيع، ونجني، ونبنى ونستخرج الماء والمعادن، وكانت الطائرات
اختراعًا حديثًا بالنسبة إلى البشر، فقلت له: إن النظر إلى

السماء قد هدانا إلى اختراع الطائرة.. فقال: قاتلها الله..
إنها آلة هلاك وتدمير!

كان ذلك منذ عشرين عامًا.

والآن أسائل نفسي أيها أجدى: النظر إلى الأرض أو
النظر إلى السماء؟

لا النظر إلى السماء ولا النظر إلى الأرض يجدى. ولكن
العمل في السماء وفي الأرض هو الذى يجدى. احث الأرض
تخرج لك الثمر والماء والذهب والبتول. واحث السماء تخترع
طائرة جديدة، وتطرق بيدك أبواب المريخ!

لا تكتف بأن تنظر، بل اعمل، فإن النظر يدعك فوق
الأرض، كما أنت.. أما العمل ولو كان في الأرض فإنه
ينقلك إلى السماء!

شم النسيم

احتفل الناس اليوم بشم النسيم. عيد الربيع. فاستقبلوه
بالابتسامات، والمرح، والمنى. واستقبلهم بالإشراق، واليقظة
والشذا. قدموا له الألوان الحمراء، والزرقاء، والصفراء،

والخضراء والبيضاء، قدموها له في ثيابهم، وفي لعبهم، وفي
البيض وثريات الكهرياء وقدم لهم نفس الألوان، وأكثر منها
فتنة وبهاء في الزهر، والورد، والخس والبرتقال والخيار، قدم
لهم حمرة الشفق وصفرة الغروب، وزرقة السماء، ودكنة النهر،
وخضرة ماء البحر، وبياض الموج. وكما ضحك الناس
واختالوا وانتشوا ضحك الربيع كما يقول البحترى :

أتاك الربيع السطلى يختال ضاحكاً

من البشر... حتى كاد أن يتسكلم

وكما تبرج الفتى للفتاة والفتاة للفتى في يوم شم النسيم.
غيد الربيع والتحرر والانطلاق، تبرجت الطبيعة بنجومها
وشمسها، بزهرها وشجرها كما يقو ابن الرومى :

تبرجت بعد حياء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

وكنت مع الناس ولم أكن معهم... جمعنى بهم يوم شم
النسيم، فنشقت الشذا كما نشقوه، ورأيت مثلهم السماء
والأرض والناس ألوان الزهر والبيض، وثريات الكهرياء..
ولكنى لم أكن مثلهم..

كانوا يستقبلون الربيع، وكنت أودع الربيع... إن يوم
شم النسيم هو المحطة التي يجتمع فيها القادمون والمسافرون
والمستقبلون والمودعون.. واجتمعت بأصدقائي في المحطة، أرى
في يوم شم النسيم... كانوا معاً، وكنت وحدي!
كلا يا أصدقائي... لا تتظروني فأنا أودع وأنتم
تستقبلون.. أنا ذاهب وأنتم قادمون!!



الفقر الذكى.. والثراء الغبى!

ماذا تصنع لو خيرتك الأقدار بين أن تكون فقيراً ذكياً،
أو ثرياً فى منتهى الغباوة؟

إذا تركت نفسك لسجيّتها، فسوف تختار حتماً، الثراء مع
الغباوة.. فالفقر يقتل فى الإنسان كل شىء، يقتل المواهب،
والمشاعر، والمعانى... إنه يحول القوة إلى ضعف، والصحة
إلى مرض، بل إنه يحول الذكاء المفرط، إلى غباوة مطلقة!

وقديماً دعت أعرابية لطفلها الوليد أن يرزقه الله حظاً
يخلّده أصحاب العقول، ولا يرزقه عقلاً يخدم به أصحاب
الخطوط!

وهو دعاء يتمشى مع الغريزة، والفطرة، ومنطق الحياة..

أنا شخصياً أؤثر أن أكون ذكياً ولكنى أكره الفقر.

وليس معنى ذلك أنى أحب المال. أو على الأصح لست
أعرف كيف أحدد علاقتى بالمال، هل أحبه أو أكرهه. فما

أكثر ما تتجمع الأموال في يدي، وما أكثر ما أبددها.. وكلما
عضني الإفلاس بأنياه الحادة لجأت إلى مصل السلف..
أحقن به نفسي! أحياناً أحصل على هذا المصل من البنك،
أو من إدارة الجريدة وأحياناً أحصل عليه من السوق السوداء
بواسطة المرابين!

والذين يرونني يظنونني في حالة ثراء فاحش.. فأننا
أنصرف في المال كالأغنياء، والفرق بيني وبينهم أني أنفق آخر
قرش، وهم ينفقون أول قرش.. وأنا مثل الأغنياء أتعامل مع
البنوك والفرق بيني وبينهم أنهم يدينون البنوك، وأنا أستدين
من البنوك!

هناك كثيرون يحصلون على المال ويحددون إقامته في عمارة
أو أرض، أو سهم، أو سند، أو رصيد.. ولست من
هؤلاء، فإني لا أكاد ألقى القبض على المال، حتى أطلق
سراحه وأتركه يركض دون أن أسأله إلى أين؟ ودون أن
أعرف هل يعود أو لا يعود!

ولعلني لم أجب بعد عن سؤال: هل أحب المال أو
أكرهه؟ وما أظنني أردت بهذه الكلمة أن أجيب عن هذا

السؤال، وإنما أردت أن أسجل شعورًا ناتجًا مبهما.

ولكن لماذا انتابني هذا الشعور اليوم بالذات؟

كنا نتحدث عن أمراض السكر، ضغط الدم، وتصلب الشرايين، وكان بيننا أساتذة في الطب فأجمعوا على أن هذه الأمراض تظهر بكثرة في الطبقة الغنية، وتختفي في الطبقة الفقيرة، فقد ظهر من إحصاءات دقيقة أنه يوجد بين كل مائة غني تسعون غنياً يعانون أمراض السكر والضغط وتصلب الشرايين. في حين لا يوجد بين كل ألف فقير أكثر من شخص واحد يعاني هذه الأمراض..

وقد علل الأطباء الفنيون هذه الظاهرة، بقدرة الأغنياء على ملء بطونهم بالأطعمة الدسمة، والخلوى، والنشويات.. وليس هذا هو السبب الوحيد للأمراض التي أشرت إليها، فهناك نظرية ترى أن الخوف يجلب هذه الأمراض. ولقد قام أحد العلماء بتجربة أكدت صحة النظرية: حبس قسطاً في قفص، وحبس فأراً في قفص آخر، وجعل القفصين في وضعين متقاربين. وقاس ضغط الفأر وضغط القط قبل حبسهما فوجد الضغط عندهما عادياً. وبعد شهر قاس ضغط القط

فوجدته كما هو، وقاس ضغط الفأر فوجده عاليًا جدًا.. وخرج من هذه التجربة بأن خوف الفأر من القط المجاور له هو الذى ضغط دم الفأر!

والخوف يدخل حياة الأغنياء ولا يدخل حياة الفقراء.. فعند الأغنياء ما يخافون عليه من مال ومتعة، وجاء.. أما الفقراء فليس عندهم أى شيء يخافون عليه!

ولقد تأمر الترف والخوف على الأغنياء، فأصابهم بالسكر، وضغط الدم، واختصر أعمارهم.. ونجا الفقراء من الترف والخوف معًا فطالت أعمارهم، ولم يتعرضوا لهذه الأمراض الوبيلة، وكل مرض يصيبهم قابل للبرء والشفاء.. بما فى ذلك أمراض السل والأنيميا، والتهاب الرئة!

أما الأغنياء فلا يمكن أن يبرءوا من أمراضهم إلا إذا عاشوا كما يعيش الفقراء.. يعملون، ويكدحون، ويمشون، ويمتنعون عن النشويات والدهنيات!

فكيف نفسر هذه الظاهرة؟ هل نفسرها بأنها عدل طبيعى. نحو الفوارق غير الطبيعية بين الأغنياء والفقراء؟ هل نفسرها بأنها سيطرة الذكاء الفقير على الثراء؟ إننى أميل إلى هذا

التفسير الأخير.. فنذ آلاف السنين احتكرت طبقة غنية قليلة العدد خيرات بلادنا. كانوا هم يملكون الأرض وكان الفقراء يعملون. كانوا يجنون، والفقراء يزرعون ويكدحون واستطاع الزارعون الكادحون بذكائهم أن يقنعوا الأغنياء بأن الأذرة، والجن القريش، واللبن الرايب ليست إلا توافه. وأن الخير في دقيق القمح الأبيض، والجبنة الدسمة، والقشدة والسمن.. وظل الاعيان يأكلون هذه الأطعمة التي تضغط دماءهم وتوتر شرايينهم.. وعاش الفقراء على الأطعمة التي أصبحت أحدث دواء لضغط الدم، وتصلب الشرايين.. وهى الجبن القريش، واللبن الرايب، والخبز المصنوع من الأذرة.

ويخطئ القارئ إذا ظن أن هذا الكلام بحث في فلسفة الغنى والفقير والذكاء، والمرض.. فليس هذا الكلام في الواقع إلا تحية لآبائنا الفلاحين الفقراء الأذكاء الذين استطاعوا أن يتقموا من ظالمهم فبدسوا لهم السم في الدسم.. في الزبدة والسمن واللبن الحليب والبيض ودقيق القمح الأبيض!

وجهة نظر مولد الرسول

هذا الإنسان العظيم جعل من الكلمة سلاحًا ونورًا.
فبالكلمة التي تلقاها من ربه، بالقرآن بينَ للناس الحق من
الباطل، والخير من الشر، وبالكلمة دعانا إلى أن نتأمل،
ونرتفع وننمو، ونتق، ونحب الآخرين.

ولنفكر في كل شيء: في أنفسنا، في السماء، في
الأرض، في الله.

ولنمد يدنا للفقير. وما نعطيه لهم ليس صدقة، ولكن
حق لهم عندنا!

ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدًا... ولنعمل لآخرتنا كأننا
نموت غدًا..

ولنتحرر من الضعف فلا انحلال ولا استخذاء، ولكن قوة
نحارب بها أعداءنا، فإن جنحوا للسلم جئناهم،

ولا استغراق في الكون، ولكن ممارسة للحياة. ولا انعزال
عن المجتمع ولكن اندماج فيه، ومشاركة في العمل والبناء..
ولنقذف بالأوهام إلى قاع سحيق.. فلا سحر،
ولا شعوذة، ولا رجم بالغيب... وكذب المنجمون
ولو صدقوا!

ولا تأليه لطاغية، أو صنم، أو شهوة. ولكن تحطيم
للطغاة، والأصنام والشهوات... فلا إله إلا الله!

والمسلم لا يتعصب ولكن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة
والموعظة الحسنة وهو يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر، فلا تفرقة عنصرية ولا تمييز لجنس أو لون، فلا فرق
بين عرب وأعجمي إلا بتقوى الله!

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده... والإسلام
سلام.. فتحية المسلمين في الدنيا: السلام عليكم، والجنة
تحيتهم فيها سلام!

وقد عمت رسالة نبي الإسلام العالم، وصارت حضارة
فكرية نامية، وعقيدة دينية راسخة.

وصلى الله على محمد....

إلى أين...؟

في منتصف ليل أمس، وعلى قرع أجراس الكنائس،
وخلال فترة ظلام صاخب، امتدت يد القدر إلى حياق
فانتزعت منها عامًا كاملاً....

وكم من مرة انتزع القدر من حياق أعمامًا وأعوامًا،
فما تأملت، ولا جزعت لأن أيامي كانت كثيرة... كنت في
ثراء فاحش من صباى وشبابى... ولكن أيامى اليوم قليلة..
وانتزع عام منها يشعرنى بالفقر، والفراغ، والعدم... فقد
تجاوزت الأربعين، تجاوزتها وحدى لا صحة، ولا مال،
ولا زوجة ولا ولد، ولا صديق..!

إلى أين أيها العام المنقضى...؟ إلى أين أنت ذاهب
بأعمارنا، وإلى أين نحن ذاهبون...؟ ولو كنا ندرى
لما سحقتنا الحسرة والحيرة، ولو كنت تدرى لكان لنا فيك
عزاء عن جهلنا، ولكنك مثلنا تجهل ولا تعلم..!

والى متى نرى أعمارنا هكذا تجري بلا قيد وراء الأعوام
الذاهبة..؟ ونرى آمالنا ترسف، بل تحجل، وكأنما هى
مشدودة إلى جبل..؟

ولكن علام نبكى الحياة، وماذا لو رحلت عنا، أو رحلنا
عنها.... مادام الرحيل هو الغاية والهدف...؟

وما هى الحياة..؟ إنها كما يقول «أبو العلاء».

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد.
وهل نحن، والحياة، والموت.. إلا كما يقول «إديسون» :
«نئن ونبكى وهذه هى الحياة.. ثم نشاءب ونذهب..
وهذا هو الموت»!

امض أيها العام.. امض.. فغداً مثلك سنمضى..!





أناك الربيع الطلق يمتلئ ضاحكا من البشر حتى كاد أن يتكلم

[ص ١٣٢]

الوتر المقطوع

في الثلاثين من عمره، ولكن بؤسه أحاله في الخمسين :
أثقل الهمّ كاهله، وحنى الفقر ظهره، وأدمعت الغربة عينيه !

عرفته منذ ستة أشهر في حفلة خاصة، غنى فأبكاننا...
وسألته عن قصته، فروى لي أنه نشأ في فلسطين، وتعلم في
لبنان، ونزح إلى مصر، ثم أقام بها، وقد تزوج ورزق ولداً،
وهو يكد ويجهّد لكي يرى ولده الوحيد.

وشاء الله أن يفتح له أبواب العمل فصنع الحاناً لبعض
الاستوديوهات واتفق مع عطة الإذاعة، وأقام بضع حفلات
نجحت جميعاً.

وكان أول أمس موعد إذاعته، وفي الموعد المحدد فوجئنا
بسماع مطرب آخر فقلت لعله تأخر عن الميعاد، فهو فنان !
أو لعله قد مرض، فهو ضعيف ! أو لعله قد شغل، فقد
كثرت أعماله في الاستوديو... ولم أقل لعله مات، لأن لم

أكن أعلم أن الموت ترك زهرة حياته وهى ذابلة، لكى يقطفها
بعدها أينعت !!

مات إذن «محمد نورى الحبال». ولم تنشر الصحف نبأ
وفاته، فإن الذين عرفوا النبأ لم يتجاوزوا ابنه الطفل،
وزوجته، ومستشفى الحميات...

كان الحبال مطرباً، فى صوته شجى، وفى لحنه ذوق،
وفى نغماته ألم. وكان يجيد تأدية الحال «العناب» والترنم
بالقصائد التصويرية وقد تلقى العلم فى إحدى مدارس بيروت.
وكان زميلاً لثلاثة شعراء ماتوا جميعاً فى سن الثلاثين.

حدثنى رحمه الله أن هؤلاء الشعراء - ولا أذكر منهم
إلا المرحوم إبراهيم طوقان - كانوا ثلاثتهم يحبون فتاة واحدة،
وقد نظموا فيها قصيدة غناها لهم الحبال، وقد بدأها أحدهم
فقال :

يا يوم أقبلن أمثال التماثيل
مكلمات بهالات الأكاليل
تبعث «ليل» و «ليلى» ذات تضليل
«ليلى» فديتك ما أفساك «ياليلى»

وقال ثانيهم :

يانفحة الأس يازهر البساتين
ويا هزاذا شدا بين الأفانين
ويا شدا نرجس غصن ونسرين
أراحل أنت أم باق إلى حين ؟

وقال ثالثهم :

هل نظرة لعميد القلب مفتون
هل نهلة من لماك العذب ترويني
أواه أبكى على من ليس يكيئي

.....

وكان يغني «لطوفان» قصيدة أذكر منها هذا المقطع :

أصبحت لا يشقى غليلي ابتسام
ولا انحناء الرأس عند السلام
أولى بنا أن نتشاكى الغرام
يا حبذا لقيًا على موعد
وحبذا أخذ يد في يد
حتى يقول الناس هامت وهام

بهذا الشعر الحسى، كان يغنى الحبال، وكان يضفى على
ما يغنيه ألواناً طلية من فنه وذوقه وصوته القوى الحسنون،
فيستثير الشجى، ويغرى بالشجن.

كان الحبال وترًا جديدًا فى قيثارة الغناء العربى، وكان
يجمع إلى مواهبه الفنية، صفات خلقية تبعث على العطف
والإعجاب، وكم كنا نود لو امتد به وينا الزمن، فاستمعنا
إليه أكثر مما استمعنا، ولكن الوتر لم يكد يشد إلى القيثارة،
حتى قطع ..

ومضى الحبال، مثل رجح الصدى .. مضى كالحلم، وكان
حقيقة، مضى كالأمس. وكان مرجو اليوم، مرموق الغد ..
ولكنه القدر!

الحرية

أعلن الفنان الفيلسوف الساخر شارلي شابلن أنه لن يعود إلى أمريكا، لأن حكومتها منعت دور السينما من عرض أحد أفلامه، وجعلته هدفاً ثابتاً لحملة بعض الصحف، وقد وصف هذه الصحف بأنها صفراء، وأنها أخذت تشهر به، وتعرض لحياته الخاصة، وتتهمه بأنه داعية من دعاة الشيوعية!

ولقد اتخذ شارلي هذا القرار بعد أن أتاحت له أمريكا أن يعيش فيها أربعين سنة، بنى خلالها مجده السامق الشامخ، وكون أسرته المؤلف من زوجة وأربعة أبناء، وجمع ثروة تقدر بملايين الدولارات.

ولكنها لما صادرت حرته كفنان وإنسان، تركها بمن فيها، وما فيها، وراح ينشد حرته!

فما المجد بلا حرية؟.. إنه ليس إلا وهماً!

ما أكثر الآثار التي ستخلد اسم شارلى شابلن. ولكن
هذا الأثر الأخير، هذا الغضب من أجل الحرية، سيظل أجدر
آثار شارلى بالبقاء، إنه الفيلم الذى سيستمر عرضه على شاشة
التاريخ أجيالا، وأجيالا..

الفهرس

صفحة

خذوها.. وأطبعوها	٥
الحياة.. أوهام لا تنتهى	١٠
من أين.. وإلى أين ؟	١٩
عقوبة الموت.. وعقوبة الحياة !	٣٠
أيها أقسى : الموت.. أم الحياة ؟	٣٥
إلى أين يا أصدقاء ؟	٤٠
الحق.. والحياة	٤٣
الهاربون من القضاء إلى القدر	٤٨
أيتها الذكريات.. ماذا تريد منى ؟	٥٤
وهؤلاء الأطباء.. هل ينطبق القانون عليهم ؟	٦٠
الحياة لقاء.. والموت فراق !	٦٨
إلى أين.. أيها الإنسان ؟	٧٢
إلى أين نمضى ؟	٧٦
عش بعدنا	٨١
كيف تعيش حياتك ؟	٨٥
عقليات ترتدى «الشورت».. و«المايوه» !	٨٨
نحن نتعلم.. لكى نحيا	٩٥

صفحة

٩٧ التقوى الثائرة
١٠٠ الجمال.. أقوى من الحب
١٠٩ الإنسان البدين.. قليل الدين
١١٣ الفن والفنانون
١١٧ عقلى.. وصحى !
١٣٤ الفقر الذكى.. والثراء الغبى !
١٣٩ وجهة نظر : مولد الرسول ﷺ
١٤١ إلى أين.. ؟
١٤٤ الوتر المقطوع
١٤٨ الحرية

١٩٨٧ / ٢٦١٦		رقم الإيداع
ISBN	٩٧٧-٠٢-٢٠٠١-٩	الترقيم الدولى

١ / ٨٦ / ٢٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

